مَوْسُوعَةُ

فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ الزُّمَرِ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة الزمر

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة الزمر

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾﴾

ابتدأت سورة الزمر بتقرير نزول القرآن الكريم بأنه من الله سبحانه وتعالى العزيز الحكيم ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ فإن مصدر كتاب الله تعالى القرآن الكريم هو من الله رب العالمين، المتصف بالعزة والحكمة. بما يفيد النفي التام والقاطع من أن يكون كتاب الله القرآن العظيم من عند غيره سبحانه وتعالى ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ فهذا بيان أيها الناس من ربكم عَزَّ وجل بأن مصدر القرآن الكريم ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ من غير شك ولا ريب ولا مرية في ذلك.

وقد أشار تبارك وتعالى إلى القرآن العظيم بقوله عَزَّ وجل ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: أن القرآن الذي أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم هو كتاب الله سبحانه وتعالى. وجاء لفظ الكتاب مفرداً ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ليفيد جنس الكتاب. بحيث إذا أفرد الكتاب فلا دلالة له إلا على القرآن الكريم. ومن دقائق البيان الكريم أن جعل موقع نفي الشك والريبة بين خبر ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وبين الذي نَزَّل القرآن ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ فهو ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ لينفي به كل شك، ويحصر إنزاله له تبارك وتعالى، مبيناً

وموضحاً قوته وعزته وحكمته، فقال تعالى إن ربكم هو المتصف بكمال العزة ﴿ ٱلْعَزِيزِ ﴾ أي: الغالب والقاهر لجميع الأشياء، فليس مثله شيء في العزة والانتقام والقهر والغلبة. والصفة الثانية: ﴿ ٱلْحَكِيمِ ﴾ أي: الموصوف بكمال الحكمة في أفعاله وأقواله، وتدبيره لشأن خلقه، مع كمال الحكم والعدل، والذي يضع الأمور مواضعها، وينزلها منازلها الحقيقية. كما أن الحكيم يعطي دلالة الإحكام والإتقان في التصرف والتقدير، مما يدل على أن القرآن الكريم كتاب مُحْكَم، لا يعتريه نقص ولا تناقض، ومستوفي كمال الحكمة في أحكامه وتشريعه، آدابه وقصصه ومواعظه وبيان. كما يدل ﴿ ٱلْحَكِيمِ ﴾ أنه سبحانه وتعالى حكيم في أمره، وتدبيره، إذ يضع الشيء موضعه الصحيح، وهو الحكيم في تدبير ملكه، وتصريف خلقه، من الإيجاد لهم بعد العدم، ثم إلى العدم بعد الوجود، وذلك بموتهم وفنائهم، ثم من العدم إلى الوجود، وذلك ببعثهم وإحيائهم يوم البعث والنشور. فيحاسب ويجازي بحكمته. كما هو الحكيم في أفعاله وأقواله، وتدبيره، وتشريعه، وفي جميع شؤون خلقه عَزَّ وجل.

فأبطل الشك سبحانه وتعالى بتقرير الحق، ولإفادة والعناية بالحصر والاهتمام، وأنه ليس محلاً للطعن، وأن هذا القرآن مُنَزَّلٌ ممن له كمال العزة والحكمة على رسوله الأمين محمد صلى الله عليه وسلم. فلا ريب ولا شك في أنه من عند الله عَزَّ وجل. فَنَفَى بهذا البيان عن القرآن جميع طُعُون من طعن فيه زوراً وبهتاناً، وممن كذَّب به، ورماه بما لا يليق به، فنفى عنه الشعر، والسحر، وأساطير الأولين، وسجع الكهانة. فكذب بذلك سبحانه وتعالى جميع المفتريات والطعون، وأثبت مصدره أنه من لدنه عَزَّ وجل.

ثم يؤكد تبارك وتعالى مضمون القرآن وغاية القرآن بأنه بالحق ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ فإنا أيها النبي أنزلنا عليك هذا الكتاب الذي هو القرآن بالحق ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ بما يعني ويفيد أن جميع ما في القرآن حق، ابتداء من نزوله، ومضمونه، وتشريعه، ومواعظه، وأوامره ونهيه، وقصصه وأحكامه. فيثبت بدلالة أنه نزل ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ كمال الحق وتمامه، وامتناع أن يلج إليه الباطل، أو يتسلل إليه شيء من ذلك ما بقيت الحياة الدنيا.

وقد بدأت الآية الكريمة بتقرير امتنان الله تعالى على رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، بإنزال القرآن العظيم، بما يؤكد ويبين قيمة ومنزلة وعلو شأن هذا القرآن العظيم، ليكون منطلقاً لما بعده من عظيم البيان ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ ففي هذا المقطع من الآية الكريمة تشريف وتكريم وتعظيم للنبي صلى الله عليه وسلم، بأن أنزل الحق الذي هو القرآن الكريم عليه، وأنه موصوف بالحق، والذي مفاده: التقرير بأن هذا

القرآن نزل حقاً من عند الله تعالى، وأن مضمونه حق في أمره، وحق في نهيه وتشريعه، وأنه مصون من الله تعالى، فلا يأتيه الباطل، ولا التحريف، بما يؤكد ويفيد تقرير وجوب الاتباع ولزومه، وعدم العدول عنه.

ومن دقائق البيان أن ابتدأ كلامه عَزَّ وجل بضمير المتكلم ﴿ إِنَّآ ﴾ الذي يفيد التعظيم والتبجيل، والقوة والعزة والتأكيد. ثم أكد ذلك أيضا بإسناد الضمير مرة أخرى في إنزال القرآن العظيم له سبحانه وتعالى ﴿أَنزَلْنَآ ﴾ وذلك لبيان المزيد من التفخيم والتأكيد بأن الإنزال منه سبحانه وتعالى، وأنه كتاب للناس من ربهم عَزَّ وجل. وقد عَيَّنَ بالتحديد والقصر أنه منزل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، فقال عَزَّ وجل ﴿إِلَيْكَ ﴾ فأنت أيها النبي المخصوص بالإنزال لهذا الكتاب العظيم، وليس لغيرك شأن في إنزاله أبداً.

ثم بين الله تبارك وتعالى للناس الهدف والغاية في شخص النبي صلى الله عليه وسلم، باعتباره القدوة لغيره، فقال عَزَّ وجل ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ فاعبد ربك أيها النبي بإخلاص العبادة والدين كله له وحده لا شريك له. ليشمل ما ظهر منها وما بطن، لأن الإخلاص متضمن للظاهر والباطن، فتنتفي بذلك كل المقاصد التي تتعارض مع الإخلاص. بما يفيد: أنه إذا كان رسوله صلى الله عليه وسلم مُكَلَّف بالإخلاص فإنه منهج عام لكل العباد، بأن يخلصوا الدين لله تعالى، ظاهراً وباطناً، في السر وفي الجهر.

وبعد أن قرر تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم وجوب إخلاص العبادة له وحده لا شريك له عَزَّ وجل، ووجوب توحيده وإفراده بها، يقرر بعد ذلك تبارك وتعالى التعميم للجميع بأن الأصل في الدين الخالص بأنه لا يكون إلا منه وله عَزَّ وجل. فقال جَلَّ شأنه ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ فقد تصدرت الآية الكريمة بأداة الاستفتاح ﴿ أَلَا ﴾ التي هي أداة التنبيه، إعلاناً لمضمونها، ودفعاً للنفوس أن تتولاها بالعناية والاهتمام، ومتضمنة للقصر، بقصر الدين الخالص لله عَزَّ وجل. كما لحقت لفظ الجلالة بعدها لام الاستحقاق ﴿لِلَّهِ ﴾ فلا يكون الدين المتصف بالإخلاص إلا لله تبارك وتعالى ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ ألا إن لله تعالى وحده لا شريك له ﴿ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ الدين الذي خَلُص من جميع شوائب الشرك والرياء والسمعة. فلا يكن إلا لله تعالى خالصاً بالعمل، وإخلاصاً بالقول، وإخلاصاً بالقلب. مما يفيد أن الله تعالى لا يقبل إلا الدين الخالص، وأن الدين الخالص لا يكون خالصاً إلا إذا كان وفق ما شرع جَلَّ جلاله، وأن يكون مخصوصاً به الرب سبحانه وتعالى لا

شريك له، فهو المقبول عند الله تعالى. مما يُوجب على المسلم الذي يريد مرضاة الله تعالى أن يخلص الدين كله لله تعالى وحده لا شريك له، ووفق ما شرع. فلا يقبل الله سبحانه وتعالى من العمل إلا ما كان خالصاً له وحده لا شريك له.

ومن دقائق البيان أن تسمية جميع مفردات الطاعة لله تعالى بالدين ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ ليستوفي جميع أنواع العبادات الواجبة، والنوافل، ومفردات الطاعة من الأخلاق والآداب، وفعل الصدقات، والإغاثة والإعانة وغيرها من أعمال البر، بل في جميع سلوك الإنسان الذي أمر الله تعالى به العبد أن يسلكه، بأن يتصف بالإخلاص الذي خلص من كل ما يشوبه من أضداد الإخلاص. فدلالة كلمة ﴿ ٱلْخَالِصُ ﴾ تفيد الطاهر والطُّهر والنقاء والصفاء والسليم والسالم من كل ما يشوبه ويلوثه، سواء من الشرك الأكبر، أو الشرك الأصغر كالرياء، أو السمعة. وبالتالي يجب أن يكون دين المؤمن هو طلب لمرضاة الله تعالى، محبة وإخلاصاً له عَزَّ وجل. وهو تجريد المتابعة لله تعالى وحده لا شريك له في جميع مفردات الدين. وفي هذا ترقية وعلو واستعلاء لسلوك المؤمن، بأن يتوجه به لربه وخالقه الذي لا يستحق العبادة غيره جَلَّ جلاله. مما يفيد أن العبادة وعموم الطاعة المقبولة عند الله عَزَّ وجل هي المتصفة بصفتين: الأولى: عبادة الله تعالى بما شرع، والذي يمثله الدين الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ﴾ والثانية: إخلاص الطاعة له سبحانه وتعالى. كما قال عَزَّ وجل ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ فيلزم أن يكون خالصاً نقياً لله تعالى.

ثم يخبر الله تبارك وتعالى بأولئك المشركين، الذين أشركوا مع الله تعالى غيره فيما هو له، بأنه يجب عليهم الإخلاص، وأن عبادتهم باطلة لا قيمة لها عند ربهم سبحانه وتعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ فالذين أشركوا مع الله غيره، فاتخذوا من دونه أولياء، قائلين ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ معللين شركهم بتلك الأصنام وغيرها من المعبودات ﴿ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ إلا لتشفع لنا عند الله تعالى، وتُقربنا من الله ﴿ زُلْفَىٰٓ ﴾ أي: مكانة ومنزلة. وكأن لتلك المعبودات منزلة عند الله تعالى. وكأن الله تعالى جعل بينه وبين عباده وسطاء، وهذا التعليل من المشركين هو افتراء في الدين ليس له أصل، بل ليس هناك وساطة بين العبد وربه، إلا أعماله، فهي التي يُحاسب، ويُكَافَأ ويجازى عليها. إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. فليس لله تعالى حاجة في أن يجعل له وسطاء، فهو الغني المغني، الذي له كمال الملك، وكمال القدرة، والجميع عبيده. مما يبين أن المفاهيم الخاطئة، تقود الإنسان إلى الهاوية بسبب التعود عليها، ثم ينتقل بها إلى التبريرات، والمدافعة والمناصرة لها، بما يتنافى مع الحقيقة.

ثم يخبر الله سبحانه وتعالى بما سيكون من القضاء والحكم بين المؤمنين وبين المشركين فيما يتخاصمون عليه بينهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ إن الله تعالى سيحكم بين المؤمنين الذين يرشدون الناس إلى توحيد ربهم، وإخلاص العبادة له وحده لا شريك له، وبين أولئك الذي يعللون شركهم بأنهم ليقربهم عند الله مكانة. فيجازي كلاً بما يستحقه.

ثم يبين تبارك وتعالى هدايته التي يمنحها لعباده، بأنها خاصة لمن يطلب رضاه عَزَّ وجل، فإنها لا تكون لأولئك المكذبين، الذين يفترون على الله تعالى الكذب، بقولهم: أن تلك المعبودات تقربهم عند ربهم زُلفى، من المكانة والحظوة، فقال جَلَّ شأنه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ إن الله سبحانه وتعالى لا يوفق للهدية وإلى الصراط المستقيم من اتصف بصفتين سيئتين. الصفة الأولى: الكذب: ﴿مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ﴾ وهو المتصف بالكذب على الله سبحانه وتعالى، حتى صار الكذب سمة له، فيفتري على الله تعالى الكذب، بافتراء الشرك والبدع، وغيرها مما لم يشرعه الله تعالى في دينه. والصفة الثانية أنه ﴿كَفَّارٞ﴾ أي: شديد الكفر، فدلالة كفار تفيد المبالغة في الكفر إلى أقصى ما يكون منه، ويشمل الكفر كفرهم بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم، وإنكارهم شريعة الله تعالى وتوحيد ربهم عَزَّ وجل، وإنكارهم القرآن العظيم.

ثم يرد الله تعالى على الإشراك به وما نسبوه له سبحانه وتعالى من الولد، وجميع فروع الكذب وأنواعه، فيدحر ويبطل به عَزَّ وجل فكر واعتقاد المشركين، ليبطله جميعاً، من خلال بيانه العظيم، حيث قال تبارك وتعالى ﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ أنه فيما لو أراد الله تعالى أن يتخذ ولداً لاختار واصطفى ما يشاء مما خلق من الخلق. ثم ينزه تبارك وتعالى نفسه العظيمة عن ذلك بالتسبيح والتعظيم ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ والتي تفيد: تنزيهه عَزَّ وجل عن جميع ما نسبه أهل الضلال إليه، من الولد، ومن البنات، ومن الشركاء. ثم يُبطل عَزَّ وجل اتخاذ الولد بإظهار وبيان عظمته وغناه عن كل مُعين جَلَّ جلاله، فقال تعالى ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ فإن ربكم هو المتصف بالوحدانية التي ينتفي بها الشريك والولد، لأنه ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾ هو وحده ﴿ٱللَّهُ﴾ الإله الذي ليس هناك مألوه غيره، بما يفيد أن من اتخذ إلهاً غيره فقد كفر، لأنه الواحد المنفرد ﴿ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ﴾ المنفرد، فليس معه أحد، كما أنه ﴿ٱلۡقَهَّارُ﴾ الذي يغلب ويقهر ويذل من يشاء، فلا قوة تتصدى له سبحانه وتعالى. فلا حاجة له لغيره.

كما أن دلالة ﴿ ٱلۡقَهَّارُ ﴾ تفيد المبالغة في القهر والإذلال لخلقه، والجميع خلقه، بما يفيد أن كل شيء مقهور تحت قهره وسلطانه وعزته سبحانه وتعالى، وبالتالي فهو غني عن أن يتخذ ولداً يعينه ليساعده. وفي هذا كمال الرد، وكمال النفي للشريك، وكمال الإثبات للوحدانية له سبحانه وتعالى.

ثم يؤكد للعباد ذلك من خلال لفت انتباههم إلى عظيم مخلوقاته تبارك وتعال، فإن في عظمتها دلالة على غناه، وعلى عظمته عَزَّ وجل، وعلى قهره لكل شيء، وعلى جلالته، وقوة أمره ونهيه. فقال تعالى ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلٌّ يَجۡرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ﴾ فإن ربكم هو الذي خلق السماوات والأرض ﴿ بِٱلۡحَقِّ ﴾ التي تعني وتفيد الحكمة والغاية، والهدف الحكيم. وأفادت دلالة كلمة ﴿ خَلَقَ ﴾ معنى الإنشاء والإيجاد والإبداع بما ليس له مثيل، فالخلق إنشاء من العدم، من غير سابق لمثله. فيقرر الله تعالى للعباد أنه هو الذي خلق السماوات والأرض، وبالتالي فإن كل موجود هو من خلق الله تعالى، فكيف تعبدون مخلوقاً، وتجعلونه شريكاً للخالق. بل ومن دقائق البيان والإيضاح أنه سبحانه وتعالى خلق السماوات والأرض ﴿ بِٱلۡحَقِّ ﴾ الذي هو ضد العبث، فإن الله تعالى إنما يخلق ما يخلقه من الخلق ويُوجده لحكمة وغاية، وقصد حكيم، فإنه عَزّ وجل مُنَزَّه عن العبث.

وقد شملت دلالة ﴿ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ العالم العلوي، وشملت ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ ﴾ العالم السفلي، فجمعت دلالة الكلمتان، أو الاسمان جميع الخلائق، فأغنتا عن التفصيل، والتعداد، وهي غاية في الإعجاز البياني.

ومن غزارة وقوة المعالجة أن الله تعالى لفت انتباه العباد عامة، والمشركين والكافرين خاصة إلى خلق الكون كله في دلالة كلمتين: السماوات والأرض، والتي يدل خلقها على عظمة خالقها، وقوته، ووحدانيته عَزَّ وجل، فنزه تبارك وتعالى نفسه عن صنيعهم واعتقادهم من الشرك بما خلق من الخلق العظيم المتمثل في السماوات والأرض، بما يثبت وحدانية الله جَلَّ جلاله وعظيم قدرته. فهو استدلال وحجة لا يزيغ عنها، ولا يتغافل عنها إلا متعمد الكفر.

ثم بعد بيان الخلق وما تضمن من لإنشاء والإيجاد والإبداع بما ليس له مثيل، ينتقل البيان الكريم مباشرة إلى شد انتباه المتلقي إلى حركة الليل والنهار في تعاقبهما الدقيق، فقال تعالى ﴿ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ ﴾ فإن ربكم يُدخل جزأ من الليل في النهار، وجزأ من النهار في الليل بدقة متناهية. فتأمل أيها الإنسان هذه القدرة وهذا التسخير، وهذه الآية العظيمة.

والتكوير هو: الإدخال، فيحمل الليل على النهار، ويغشي هذا بهذا، وهذا بهذا، في تعاقب متتالي لا ينقطع، ولا يتغير. ومن ذلك أنه يُدخل ما نَقَصَ من ساعات الليل في ساعات النهار، فتزيد من نقصان هذا في زيادة هذا. ويُدخل ما نَقَص من ساعات النهار في ساعات الليل، فتزيد في ساعات الليل ما نقصت من ساعات النهار. حتى يكون الليل خمس عشر ساعة، والنهار تسع ساعات، ويُدخل النهار في الليل، حتى يكون النهار خمس عشرة ساعة، والليل تسع ساعات.[١] ويشمل كذلك دلالة تدرج دخول الليل في النهار، وتدرج دخول النهار في الليل بدقة غاية في النظام والإعجاز. فإن الذي أولج الليل في النهار، وأولج النهار في الليل بهذه العظمة الرهيبة؛ هو الذي يستحق إفراده بالعبادة وحده لا شريك له، وأنه القوي الذي لا يعجزه شيء أبداً، فإن قوله تعالى إذا أراد شيئاً أن يقول للشيء: كن فيكون.

ثم يلفت الانتباه سبحانه وتعالى إلى ما سخره للعباد في الكون، حتى ينتفعوا به ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ فإن من نعمة ربكم عليكم تسخير الشمس والقمر، فترونها بحركتها، وتعاقبها، وعظمتها، من غير فتور ولا خلل، بل ومطواعتين في خضوع وقهر لمراد الله تعالى، فإن الذي سخر الشمس والقمر هو الذي رفع السماء بغير عمد ترونها، وهو رب العرش العظيم الذي لا ترونه بأعينكم، ولكن تصدقون به قياساً على عظمة مخلوقاته، أفلا تؤمنون؟ والشمس والقمر التي هي أظهر الكواكب تسير أمام أعينكم بدقة وإعجاز؟ ﴿كُلٌّ يَجۡرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فكل منها يسير جرياً منتظماً، إلى وقت مقدر ومؤقت ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو وقت انتهاء الحياة الدنيا. فحركة الشمس وحركة القمر تتعاقب في سيرهما من غير خلل إلى أن يحين الوقت المحدد لانتهائها، فلا تتأخر ولا تتقدم، وأفادت دلالة التسخير ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ التطويع والإخضاع والقهر، فتسير منقادة لتحقيق مصالح خلقه، وذللها لمنافعهم، فيعرفون بها الليل والنهار، والحساب، والأوقات، ويستضيئون بنورهما، وغير ذلك من المنافع. بل وكل ذلك الخلق والتسيير الدقيق هو إلى وقت محدد ومعلوم، وهو فناء الدنيا بقيام يوم القيامة، والتي لا يعلم وقتها إلا الله جَلَّ في علاه.

فهذا الإخبار والبيان هو لفت النظر إلى كمال قدرته سبحانه وتعالى، بما يراه الْمُخَاطَب من تَحَكُّمُهُ عَزَّ وجل في الليل والنهار، فيولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل؛ وعلى وتيرة دقيقة في أوقاتها. والتي توضح وتبين قوته وقدرته، وعظيم سلطانه عَزَّ في علاه، سبحانه وتعالى، فإن الذي يتحكم في هذا الشأن العظيم، وبهذه العظمة وهذه القدرة، فإنه قادر على كل شيء، ومن ذلك إهلاك من عصى، ولم يطع رسوله صلى الله عليه وسلم، فإن ذلك يُظهر قوة نُصْرَتُهُ لمن بغى عليه. فهو استدلال وحجة لا يزيغ عنها ولا يتغافل عنها إلا متعمد الكفر. كما تعطي هذه الدقة من الترتيب البياني للاستدلال المنهجية العملية في تحرير الاستدلال، ومنهجية

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥/٣٠٤-٣٠٥)

سياق الأدلة، وأهمية ترتيب عملية التدرج الرُّتَبِي للأدلة، لتحقيق الإقناع، وأنه منهج رباني كريم. بما يؤكد ويبين أن هذا الدين هو دين رباني، قائم على الإقناع والعلم.

وقد ورد البيان بأسلوب الالتفات إلى قدرة الخالق بما يبين بها قوته وقهره وعزته جَلَّ جلاله. مما يفيد في الجانب التعليمي والوعظ والإرشاد أهمية بيان ما في الكون من عظمة التدبير، وعظمة السلطان، والتغيير، والترهيب والترغيب، فإن فيها مواعظ. وهنا يظهر تناسق التداخل بين الليل والنهار، وبين النهار والليل بصورة عجيبة، تبين قوة قدرة الله تعالى وعظيم سلطانه، وقوة قهره، وقدرته على التغيير بما يشاء، فلا يتقدم منها شيء، ولا يتأخر منه شيء البتة. بما يدل على عظيم مُلْك الله تعالى، وعظيم قدرته وسلطانه، وجمال وكمال تصرفه، فقد نزع مما أعطاه النهار من ساعات، ليعطيه الليل بحكمه وقدرته، وينزع ما أعطاه الليل من ساعات، فيعطيه النهار بحكمته وعظيم قدرته، فتراها في عملية دؤوبة دقيقة؛ ومتدرجة، وفي صورة مذهلة لمن تأملها، بل ويُدخل الليل على النهار عند مجيئه بتدرج عظيم عجيب، وكذلك يدخل النهار عند مجيئه على الليل بتدرج عظيم عجيب، وفي نسق لا تنازع بينهما فيه. لتتجلى ملكية الله تعالى، وعظيم تدبيره وقدرته وتصرفه في ملكه، فلا يعجزه البعث بعد الموت، ولا شيء أبداً. فانتبهوا أيها العباد لقدرة الله تعالى، وانتبهوا من الظلم، وفي نفس الوقت اطمئن أيها المؤمن، وأيها المظلوم من عودة حقك لك بقدرة الله تعالى وحكمه وانصافه. مما يفيد الحذر من المعاصي، واليقين بأن الله تعالى سيجازي كلاً بعمله، وسينصر المظلوم فرداً كان، أو جماعة، أو أمة من الأمم.

ثم أضاف عَزَّ وجل صفتين عظيمتين، هما: صفة العزة وصفة المغفرة: فقال تعالى ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ وبدأ بيانهما بحرف ﴿أَلَا﴾ التي تصدرت السياق لعزته ومغفرته الكريمة، فكانت أداة الاستفتاح لتي أعطت التنبيه للصفتين الكريمين، فإن حرف ﴿أَلَا﴾ يعطي دلالة التنبيه، وذلك إعلاناً لمضمون ما بعدها، ودفعاً للنفوس أن تتولى وتتفهم البيان بالعناية والاهتمام، وكذلك تضمنها للقصر، بقصر الصفتين المذكورتين ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ على الله تعالى، كما لحقها اسم الإشارة ﴿أَلَا هُوَ﴾ الذي يفيد: هو لا غيره ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ ليعطي تراكيب السياق أن الله تعالى هو العزيز الغفار وليس لغيره هذه الصفة.

الأولى أنه: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: الغالب والقاهر لجميع الأشياء، فليس مثله شيء في العزة والانتقام والقهر والغلبة. مما يفيد التحذير من المعصية، والتحذير من عدم اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم وطاعته، ومع كمال العزة فإن ربكم هو ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ أي: الكثير المغفرة لعباده، بمحوها وسترها، فمع كمال عزته فإنه غفور. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: ووصف ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ تمهيداً لصفة ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ أي: غفار عن عزة ومقدرة،

لا عن عجز[١] ولإفادة أنه مع عزته سبحانه وتعالى فلا تيأسوا من مغفرته، وفي ذلك ترغيب لكل عاص مهما بلغت معصيته أن يتوب إلى ربه العزيز الغفار. فجمعت دلالتها بين الترهيب والترغيب.

﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٦) إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧) وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (٨) ﴾

ثم بعد بيانه سبحانه لعظيم ما خلق من السماوات والأرض، وإيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل، وتسخيره للشمس والقمر، ينتقل البيان في تدرج عظيم إلى بيان عظمة الله تعالى في خلق هذا الإنسان الذي هو محور الخطاب من ربه سبحانه وتعالى، فيقول عَزَّ وجل ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ ينبه ويعلم سبحانه وتعالى عباده عن عظمة خلقه وتدبيره في خاصة أنفسهم، أي: لهذا الجنس البشري، لتقرير التوحيد وإبطال الشرك، فقال تعالى ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ فيقرر جَلَّ في علاه لعباده بأنه هو الذي خلقهم جميعاً، شعوباً وقبائلا، وألواناً متعددة ومتناسقة، وفي أطوار متتالية متعاقبة، ولكن كل ذلك التعدد هو من نفس واحدة، هو آدم عليه الصلاة والسلام﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ ثم يبين تبارك وتعالى ترتيب ذلك بحرف ﴿ ثُمَّ ﴾ الذي أفاد الترتيب، بأن خَلْق زوجته حواء كان مبني على خلق آدم عليه السلام ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ ليفيد الترتيب الرتبي، لأنها خُلقت منه، فإن خلقها مترتب على خلق زوجها. فحتى زوجته خُلقت منه عليه

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٥٣٨/٩)

السلام ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ فجعل زوجته حواء مخلوقة منه عليه الصلاة والسلام. وهذه آية عظيمة تدل على عظمة الله تعالى وقوة قدرته وسعتها التي وسعت كل شيء، وأن الغاية من علة وجود زوجته حواء، لتكون حواء سكناً لآدم، وأنساً يستأنس بها، فيميل إليها، فتحصل له بها الطمأنينة، ويكثر بهما النسل والذرية المتتابعة حتى يقضي الله تعالى شأن هذه الحياة بيوم القيامة.

ثم يتدرج البيان إلى تفاصيل خلقه عَزَّ وجل للأنعام، فقال تبارك وتعالى ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ﴾ فإن من تفضل وإنعام ربكم عليكم أن أنزل لكم ثمانية أصناف من الأنعام، لتنعموا بها في حياتكم الدنيا. وفي تخصيص وتعيين علة إيجاد الأنعام بأنها ﴿ لَكُم ﴾ ما يفيد التكريم والعناية والامتنان على الجنس البشري بهذا الإيجاد. كما أن في تقرير هذا الخلق للأنعام بالإنزال ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم ﴾ ما يفيد العلو والارتفاع، وبما يفيد التذليل والتمكين لكم من ربكم، ولتفيد قوة الامتنان الذي أنزله عليكم منه سبحانه وتعال، فأنزل بأمره هذا الخلق من الأنعام بالكيفية التي ترونها. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: والإنزال: نقل الجسم من علو إلى سُفل، ويطلق على تذليل الأمر الصعب، كما يُقال: نزلوا على حكم فلان. فإطلاق الإنزال هنا بمعنى التذليل والتمكين[١] فالإنزال بمعنى الخلق، ولكن لإفادة قوة الامتنان، ومنزلة التكريم بما خلق. وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: خلق لكم من ظهور الأنعام[٢] ﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ﴾ أي: من الإبل زوجين، ومن البقر زوجين، ومن الضأن اثنين، ومن المعز اثنين[٣] فبين الله تعالى أنه خلق ثمانية أزواج: يعني ثمانية أفراد، وسُمِّي الفرد زوجاً في هذه الآية لأن كل واحد من الذكر والأنثى زوج بالنسبة للآخر، ويقع لفظ الزوج على الواحد، فيقال: هما زوج، وهو زوج. ويقول: اشتريت زوجي حمام: أي ذكراً وأنثى، والحاصل أن الواحد إذا كان منفرداً، سواء كان ذكراً أو أنثى، قيل له فرد. وإن كان الذكر مع أنثى من جنسه، قيل: لهما زوج. ولكل واحد على انفراده منهما زوج، ويقال: لهما أيضاً زوجان، ومنه قوله تعالى في سورة القيامة ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ٣٩ ﴾[٤] وقد فَنَّد سبحانه وتعالى بيانها في سورة الأنعام، وهو قوله عَزَّ وجل ﴿ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٥٦٨/٩)
(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٠/٤)
(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٦٢/٢٠)
(٤) الشوكاني، فتح القدير (١٧٠/٢)

﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾ وقوله تعالى ﴿وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ وبهذا اكتمل المعنى، وأظهر الله تعالى كمال قدرته، كما أظهر كمال بيانه، ليدل أن هذا البيان العظيم هو من الله تعالى الخلاق العظيم.

ثم يعود البيان إلى تفاصيل خلق الإنسان بعد أن أظهر امتنانه على جنس الإنسان بما خلق له من الأنعام، وما فيهما من التشابه من حيث التوالد والتكاثر، فورد البيان الكريم في تدرج عظيم إلى أطوار خلق هذا الإنسان، فيقول عَزَّ وجل ﴿يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖ﴾ أي: خلقاً كائناً من بعد خلق، فأطوار خلق بني آدم في بطن أمه يكون ﴿خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ﴾ أي: تعاقب التكوين داخل البطن، فهو خلق يعقبه خلق وتكوين، أي: في أطوار متعاقبة من الخلق، بما يفيد تعاقب تكوينه حتى يصبح إنساناً متكاملاً. وهذا الخلق المتعاقب هو النطفة ثم العلقة ثم المضغة ثم العظام، ثم يكسوها لحماً، ثم ينفخ فيها الروح. قال عكرمة رحمه الله تعالى: نطفة، ثم علقة، ثم مضغة. وقال قتادة رحمه الله تعالى: نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظاماً، ثم لحماً، ثم أنبت الشعر، أطوار الخلق[1] مما يبين ويُظهر عظمة خلق الله تعالى لهذا الإنسان، الذي يجب منه محبة خالقه، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، وإفراد ربه تبارك وتعالى بالعبادة وعموم الدين، والإخلاص له في الطاعة، وفي كل ما يجب فيه الإخلاص له عَزَّ وجل.

ومن دقائق البيان أن الله تعالى عَيَّن وخص الأطوار في بطن الأم ﴿يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ لبيان الانتقال من الخلق الأول: لآدم، ومنه حواء، ثم التناسل البشري بعد ذلك، فقال تعالى ﴿يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ لإفادة الانتقال بالتخصيص. ومن دقائق البيان كذلك هو ورود الخلق بصيغة الفعل المضارع المستمر ﴿يَخۡلُقُكُمۡ﴾ لإفادة تعاقب الخلق وتكرار التناسل وتجدده. مما يدل على الإعجاز البياني في القرآن الكريم. ثم زاد التخصيص عن بيان الخلق في بطن الأم بأنه ﴿فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖ﴾ ظلمة الرَّحِم، وظلمة المشيمة التي هي كالغشاوة والوقاية على الولد، وظلمة البطن. كذا قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والسدي، وابن زيد، وغيرهم[2] وهذا من عظيم الخلق والتدبير، وكذلك من عظمة البيان ودقته في الوصف مع دقة الخلق وعظمته، والتي تدل على أن هذا القرآن هو كتاب الله تعالى، وأنه حجة للرسول صلى الله عليه وسلم على الناس أجمعين.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٠/١٦٣-١٦٤)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٥٠)

ثم بعد تقرير عظمته جَلَّ جلاله في بيانه لخلقه سبحانه وتعالى للسماوات والأرض، والحيوان والإنسان، وجميع المخلوقات يذكر تبارك وتعالى أن هذا الذي خلق هو ربكم ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾ فذلك الذي خلق ما ذكره لكم من المخلوقات، وما سخر لكم به مما خلق، وذلل وطوع لكم ما خلق، وأنشأكم في أطوار متعاقبة في بطون أمهاتكم هو الله ربكم، الذي يلزمكم أن توحدوه، وتعبدوه كما أخبركم به رسولكم صلى الله عليه وسلم. فقد ألزمكم بما ساقه لكم من الحجج والبراهين التي تعلمكم ما يجب به عليكم.

ومن دقائق البيان استخدام اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ لإفادة التعظيم بالإظهار والإبراز. ثم أعقبه بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ ثم أعقب الألوهية بالربوبية ﴿رَبُّكُمۡ﴾ في نسق عظيم بديع. ثم أعقب ذلك بيان ملكه لكل ما خلق ﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُ﴾ فليس لأحد ملك فيه، فالجميع ملك لله تعالى، وبالتالي كيف تذهبون للملوك وتتركون المالك، وكيف تشركون المملوك مع المالك. ثم انتقل بتدرج عظيم إلى نفي الشريك، وإفراد ذاته سبحانه وتعال بالألوهية ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ نفى بهذا البيان جميع أنواع الألوهية، وإفرادها وحصرها وقصرها عليه جَلَّ جلاله، فليس هناك إله غيره سبحانه وتعالى. بما يُوجب عليكم إفراده بالعبادة، وطاعته وحده لا شريك له وفق ما شرع.

ثم بعد هذا البيان من الحقائق يستثير العقول للحق الواضح ﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ كيف تنصرفون عن الحق إلى الباطل ﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ فكيف تنصرفون عن طاعة ربكم وتوحيده وإفراده بالعبودية مع هذه الدلائل والبراهين والحجج العظيمة؟ فأي شيء يصرفكم عن الحق إلى الباطل؟ فهو سؤال استنكار، ويستثير التأمل لمن أراد الحق، بل ويجبره على الانصياع بكمال الطاعة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم بهذه الأدلة من الشواهد العظيمة، إلا من أبى، بسبب استكباره في نفسه. مما يبين أن دين الله تعالى واضح وجَلي، وأنه يتعامل مع عباده بالعلم والتعليم القائم على الأدلة والحجج والبراهين الواضحة البينة. كما يعطي الدعاة إلى الحق المنهجية في إقامة الحجج، وإظهار الحق، وكبح الباطل.

ثم بعد إظهار الله سبحانه وتعالى الحجج والبراهين يحذر عَزَّ وجل عباده من الكفر بأسلوب المتاركة والتخيير، الذي يعني التهديد والإنذار لمن خالف حججه وبراهينه سبحانه وتعالى، فقال جَلَّ جلاله ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ إن تكفروا أيها الناس بربكم، وتمتنعون عن الأيمان والتصديق برسوله صلى الله عليه وسلم وما جاءكم به من القرآن وكافة

الحجج والبراهين، فاعلموا أن ربكم غني عنكم، وليس بحاجة إليكم وإلى عبادتكم، ولا يرضى من عباده الكفر وإنكار النعمة التي أنعم بها عليكم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَ﴾ فمع غناه عنكم فإنه لا يوافق ولا يرضى أن يكون منكم الكفر. ولكن يرضى من عباده الشكر ﴿وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡ﴾ المتمثل في الطاعة والانقياد. ومن عدله جَلَّ في علاه أن كل نفس لا تتحمل إثم غيرها من الأنفس ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ فكل واحد من العباد يتحمل إثم نفسه. بما يفيد الإخبار بأن انصرافهم عن توحيد الله تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم بعد إقامة الحجج والبراهين عليهم، فإنهم لا يضرون إلا أنفسهم، فالضرر واقع عليهم، وأما ربكم فهو غني عن عباده.

وقد بدأ البيان الكريم بتوجيه الخطاب لهم مباشرة ﴿إِن تَكۡفُرُواْ﴾ بما يفيد أن الحجج والأدلة والبراهين قد ظهرت لكم من كل وجه، فقامت عليكم الحجة. فإن حصل منكم اختيار الكفر على الإيمان، فاعلموا وافهموا هذه الحقائق، واتعظوا بها. فالحقيقة الأولى هي: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡ﴾ فربكم غني عنكم، فأمره لكم ليس لحاجته إليكم أبداً. فإن ربكم لا يحتاج إليكم، ولا إلى طاعتكم وعبادتكم، فربكم غني عنكم، بما يفيد أنكم الفقراء إليه. والحقيقة الثانية هي: ﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَ﴾ لا يرضى ربكم أن يحصل من عباده عموماً الكفر، فالنفي لرضاه سبحانه وتعالى هو نفي موافقته لمن كفر، وإثبات أن الكفر معصية، وأن الكفر مضاد لرضى الله سبحانه وتعالى، وتعليل لغناه عن عباده لا يعني رضاه بما يكون منهم إلا الإيمان والطاعة ووفق ما شرع لعباده. ومن دلائل عدم رضى الله تعالى إيقاع العقوبة على من كفر، لأنه عمل ما لا يُرضي الله عَزَّ وجل.

والحقيقة الثالثة هي: ﴿وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡ﴾ وإن تشكروا ربكم بإقلاعكم عن الكفر، وتحمدوه بما بينه لكم، وبما وعظكم به وأرشدكم إليه من الحق، فتؤمنوا فإنه يرضى لكم به. أي: أنه يرضى ما أخذتم به من الشكر. ويتضمن الرضى دلالة الموافقة، بما يفيد محبة الله تعالى للشاكرين، وأنه بذلك يزيدهم من فضله، ويغدق عليهم من رحماته وبركاته.

ومن دقائق البيان اختيار دلالة الشكر على الطاعة والاتباع ﴿وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡ﴾ لأن الشكر اعتراف وترجمة قلبية وعملية ولفظية على إنعام المنعم، فيشكرون الله تعالى بالامتثال له عملاً بأركان الدين، وتصديقاً وإيماناً بموجبات الإيمان كاملة، ولهجاً باللسان حمداً وشكراً وثناء أن بين الله تعالى لهم الحق وأرشدهم إليه ووفقهم للعمل به. كما ورد الشكر بصيغة الفعل المضارع المستمر ﴿وَإِن تَشۡكُرُواْ﴾ وكذلك

ورد الرضا بصيغة الفعل المضارع ﴿يَرْضَهُ﴾ ليفيد الاستمرار في تعاقب الشكر من الشاكر، والاستمرار والمداومة عليه، فيكون معه تعاقب الرضى من الله تعالى، وأن رضاه عَزَّ وجل ينقطع بانقطاع الشكر. بما يفيد الحرص والاستمرار عليه حتى الرحيل من الدنيا. فنسأل الله تعالى أن يوفقنا لتحقيق رضاه، وأن يرزقنا حُسن الخاتمة.

والحقيقة الرابعة هي ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ فكل نفس لا تُؤاخذ إلا بما اقترفت وكسبت، فاكتساب الشر عائد عليها. فلا تحمل النفس الآثمة إثم غيرها. وفي ذلك معالجة لما قد يكون من التوهم والوهم، في أن يتحمل البعض وزر بعض. فهو نفي من أن تحمل أي نفس عن نفس شيئاً، فكل نفس مطالبة بما هو واجب عليها. فهو تحذير من مغبة اكتساب الإثم بالتمرد والعصيان، فكل نفس لا تؤاخذ إلا بما اقترفت وكسبت، فاكتساب الشر عائد عليها. فلا تحمل النفس الآثمة إثم غيرها، فلا تحمل كل نفس إلا إثمها الخاص بها، فلا تحمل ذنوب وعاقبة ووبال الأنفس الأخرى، ليتحقق العدل في الحساب، ثم في الجزاء،

ومعنى الوزر: الإثم، وهو الثقل، لأنه أشبه بالحمل الثقيل ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ والوازرة هي الحاملة، التي عملت الوزر، الذي هو الإثم فحملته. وهذا لا ينفي مسؤولية من أوقع غيره في الإثم، بأن يتحمل إثم نفسه فيما يخص إيقاع وإغراء غيره في الإثم، ويقيس عليها غيرها من الأسباب. وهذا تحذير من مغبة اكتساب الإثم بالتمرد والعصيان، وإشاعة الفاحشة والرذائل بين الناس، فكل نفس لا تؤاخذ إلا بما اقترفت وكسبت، سواء على نفسها مباشرة أو ألحقت به غيرها، فاكتساب الشر والخير عائد عليها. وهذا تأكيد ومزيد بيان، بأن الوزر الذي هو ذنب المذنب لن يحمل عقابه غيره، فلن يحمله عنه أحدُ غيره، فكل نفس مرهونة بما كسبت. فلا يؤاخذ الله تعالى أحداً بذنب غيره، وهذا بيان لعدل العقوبة، وأن كل إنسان يتحمل وزره، وعقوبة وزره.

والحقيقة الخامسة هي: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ثم بعد حياتكم الدنيا تعودون إلى الله تعالى في الآخرة، فيخبركم بما كان منكم في الدنيا من اختلاف في الدين، وفي الخير والشر، والطاعة والمعصية، ليكون الجزاء بعد الحساب. وقد أورد الله تعالى هذه الحقيقة بحرف ﴿ثُمَّ﴾ الذي أفاد الترتيب والانتقال من الحقائق التي تكون منهم في الدنيا إلى حقيقة المرجع، بل سماه ﴿مَّرْجِعُكُمْ﴾ لإفادة العودة، والرجوع من حيث أتيتم ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ فعودتكم هي إلى ربكم، وذلك يوم القيامة، حيث الحساب والجزاء. وهنا يحصل الإخبار والإنباء ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيخبركم بما كان منكم،

من خير أو شر. بما يفيد أنه مسجل عليكم، مما يوجب الحذر، فعليكم أن تعملوا لذلك الرجوع، وتستعدوا له بالطاعة والامتثال لربكم سبحانه وتعالى.

ثم يؤكد حقيقة ذلك ببيان كمال أسمائه وصفاته فيما يخص هذا الشأن ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ فإن علم ربكم يتجاوز الظاهر منكم إلى سرائركم، وما تخفونه في قلوبكم. فربكم ليس فقط عليم بما يكون منكم من الأعمال الظاهرة، بل تجاوز علمه إلى ما تُكِنُّون وتضمرون في صدوركم من غير إفصاح. بما يفيد عظيم علم الله تعالى بكم على كثرتكم وتنوعكم وتقلب وتنوع أحوالكم، فإنه لا يخفى على ربكم منكم شيء. بل ورد بيان العلم بعباده بصيغة المبالغة ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ ﴾ والتي تفيد كمال العلم إلى أقصاه، بحيث لا يفوت عليه سبحانه وتعالى شيء مما تخفونه في صدوركم، فكيف إذاً بأعمالكم. كما ورد لفظ الصدور بصيغة الجمع، ليفيد جميع العباد بلا استثناء، مهما كانت أحوالهم من التكتم على ما في صدرهم. وفي هذا البلاغ من الله تعالى موعظة عظيمة، كما أن في تسلسله البياني دقة متناهية من العظمة. فسبحان من أظهر الإعجاز والدلائل في خلقه وحتى في ألفاظ كلامه سبحانه وتعالى. فالحمد والشكر لله تعالى.

ثم ينتقل السياق إلى بيان ضعف الإنسان، والكشف عن حاله عندما يكون في حال من الضر ومن الهلع والخوف ونحوه، بما يؤكد ذلك الضعف اعترافه لنفسه بافتقاره إلى ربه سبحانه وتعالى، ونبذه للشرك البتة، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾ فهذا بيان لحالة الإنسان النفسية وأثرها على سلوكه وأخلاقه وتوحيده لربه عندما تنتابه حالة الضر، كالمرض أو الهلع أو الخوف ونحو ذلك، وأيضاً كشف لحاله عندما يرفع عنه جَلَّ ثناؤه الضر. فحين يمسه الضر أثناء مسيرة حياته يتجه إلى ربه تبارك وتعالى بالدعاء والإنابة والإخلاص. فيعقد رجاءه في الله ربه وحده لا شريك له، ويترك ما كان يدعو من دون ربه عَزَّ وجل. فأوقفهم تبارك وتعالى بهذا البيان الكريم على حقيقتهم، وحقيقة شركهم في الرخاء، وحقيقة توحيدهم لله تعالى في الشدائد.

فبدأ البيان الكريم بإيقافهم على حالهم في الشدائد ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ ﴾ والمس هو الالتصاق، الذي يفيد المباشرة والاصطحاب، والتي تعني التصاق الضر بأحوال الإنسان التصاقاً يعايشه ولا يفارقه حال وجود الضر. وينتج بتزامن الإصابة حدوث ملامسة الضر للقلوب التي هي محل الإحساس والتفاعل، وذلك بما يصيب الناس من الهلع والخوف مما يجدون ويتوقعون من عواقب الضر ونتائجه. وأما الضر فهو كل ما يتضرر به الإنسان، قال الزمخشري رحمه الله تعالى عن معنى الضر: الشدة من هزال، أو مرض، أو قحط، أو

غير ذلك[١] وما يكون في المال أو الولد أو المعيشة، أو الخسارة في التجارة وما يماثل ذلك. ومن دقة البيان تعميم الضر، ليشمل جميع أنواع ومفردات البلاء وأحواله ومواقعه من الإنسان، ودرجات شدته.

ومن إثارة النفس نحو بيان حالها أن ورد البيان على وجه التعميم لجنس الإنسان ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ لبيان المبالغة، باعتبار أكثر الناس هم الكفرة. وأورد تبارك وتعالى الإصابة بالضر بأدق معاني المعاناة وشدتها، وذاك بدلالة معنى: المس ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ﴾ بما يفيد شدته، وشدة الملاصقة، ومماسة الضر لحال هذا الإنسان من كل وجه. ففي توصيف حدوث الحال دقة بلاغية متناهية إلى درجة الإعجاز في البيان، والتصوير للأمر مع بلاغة السياق. فسبحان من أظهر أعجزه حتى في خطابه لعباده.

فعند حصول الضر يتجه الإنسان بكل حواسه، وبجميع ذاته إلى ربه تبارك وتعالى ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ فحين يصيب الناس شيء من الضر يتجهون إلى ربهم في إخلاص من الدعاء ﴿دَعَا رَبَّهُۥ﴾ دعاء افتقار وطلب، وهو الدعاء الذي لا يخالطه غيره فيه من الشركاء، لإدراكهم أنه لا يزيل الضر إلا الله وحده لا شريك له سبحانه وتعالى، وأنه الواحد الأحد القادر على محوه وإزالته، وإزالة حتى أثره. بل ومن مبالغتهم في إخلاص الدعاء أنهم يدعون وهم ﴿مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ إي: مقبلين إلى ربهم. والإنابة هي: الرجوع إلى الله تعالى والإقبال إليه بالدعاء في صورة واضحة وجلية من الإخلاص والتضرع والانكسار. وفي تلك اللحظة يذهب عن القلوب والخواطر جميع من كانوا يدعونهم من دون الله تعالى، فلا يعزمون في الدعاء والالتجاء إلا على الله عَزَّ وجل، فكان ربهم حاضر في قلوبهم وقت شدة الضر.

وفي ذلك البيان إيقاف الإنسان على الحقيقة التي هو عليها، وبالتالي: فلماذا يا أيها الإنسان لا تستنجد بربك وتُخْلِص له سبحانه وتعالى إلا عند حلول الكرب؟ بينما أنت في حال الرخاء لا تخلص له في العبادة، بل تدعو من دونه شركاء مزعومين باطلين. ليبين سبحانه وتعالى للكافر والمشرك وغير المخلص، واللاهي تلك الحقيقة، التي هي حقيقة التوحيد التي فُطِر عليها الإنسان، ويصحح له المذهب والاتجاه الفكري، بإعادته إلى الحقيقة الفطرية. ولتظهر لهم حقيقة أنفسهم، وحقارة ما كانوا عليه قبل الضر. ويدل هذا على أن منهج الله تعالى قائم على الحقائق، وأن الدعوة الإسلامية مبنية على الوضوح والحق. وأن دين الله تعالى واضح لا لبس ولا خفاء فيه. وكذلك أهمية المحاجة بالحق، وأن الأدلة الشرعية كافية في بيان الحق، وأهمية أسلوب الحوار والتحليل،

---
(١) الزمخشري، الكشاف (٤٧٧/٣)

لإعادة الإنسان إلى حقيقته، وليكتشف بنفسه ما هو عليه من الخطأ والخطر. كما يستفيد المؤمن من هذا البيان الكريم أن يحرص على أن يكون ملجأه هو الله تعالى في السراء والضراء، ثم الأخذ بالأسباب.

ثم يبين تبارك وتعالى عودة هذا الإنسان إلى الضلال بعد زوال الضر وحلول الرخاء عليه من الله تعالى. فهو بيان لانطماس فكر الإنسان عن الصواب الذي أدركه عند الإصابة بالضر، وذلك بعودتهم إلى الضلال بعد أن سَلَّمَهُم وفَرَّجَ عنهم الضر والكرب الذي مسهم وأحاط بهم، فيقول عَزَّ وجل ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةً مِّنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ ﴾ فلما أنجاهم عَزَّ وجل برحمته من هول ما كانوا فيه من الضر، وأَبَلَّغَهم من رحمته ما يحبون ويتمنون من الخير والسلامة ﴿ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ ﴾ فإذا بهذا المنيب والمنكسر لربه حال الضر يتغير بعد تحصيل النجاة والنعمة، وينسى حاله عندما كان يتضرع لربه وينكسر في دعائه بإلحاح عظيم بأن ينجيه مما هو فيه ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ فيرجع إلى الشرك والإعراض عن إفراد الله تعالى بالوحدانية في الربوبية والألوهية والعبودية، وترك الإخلاص الذي بذله حال المس بالضر، فعاد هذا الإنسان ورجع إلى الشرك من دون الله تعالى، وأصبح يرجو ما كان يعبد من دون الله جَلَّ جلاله، فنكصوا على أعقابهم. مما يبين عمق ظلم الإنسان لنفسه.

بل جعلوهم أنداداً ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا ﴾ والند هو المثيل والنظير، فساووا بين ربهم تبارك وتعالى الذي كشف الضر عنهم وبين معبوداتهم العاجزة عن دفع الضر عنهم، بل إنه لمعرفتهم بها فإنهم لم يتجهوا إليها، بل اتجهوا لمن يعرفون أنه القوي القادر، وهو ربهم تبارك وتعالى، فأخلصوا له في الدعاء والرجاء والطلب والاستغاثة. فانتكسوا ليحصل بهذا الانتكاس الضلال ﴿ لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ ليكونوا بهذا المسلك ممن تاه عن طريق الفوز والنجاة من عذاب الله تعالى، وحادوا عن شريعة ربهم تبارك وتعالى، وما يجب عليهم، خاصة بعد إنقاذهم مما كانوا فيه من الضر. وبالتالي أصبحوا بهذا المسلك من الفاسدين والداعين إلى إفساد الناس بإضلالهم، وإبعادهم عن سبيل الله تعالى ﴿ لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ الذي هو سبيل الفوز والنجاة. فيدخل في ذلك جميع من يحيد عن شريعة الله تعالى، متجهاً بنفسه وهواه نحو التباعد عن سبيل ومنهج الله تعالى؛ بالضلالة والكفر والشهوات والشبهات. بل قد جمع بين الوقوع في الضلالة، وبين إضلال غيره من الناس.

ووردت النعمة هنا عامة ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةً مِّنۡهُ ﴾ لتقابل عموم الضر وأنواعه ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ ﴾ فقابلت النعمة جميع أنواع وأصناف ومفردات الضر، فكل ضر تقابله نعمة ورحمة تزيله وتحل محله. وهذا والله من دقائق البيان وإعجازه المتناهي. كما أن النعمة تشمل جميع ما يتفضل به سبحانه وتعالى على

عبده من الخير، فإن جميع الخير هو نعمة ورحمة من الله تعالى بالناس جميعاً. ومن دقائق البيان كذلك أن الله تعالى نسب النعمة له عزَّ وجل ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةً مِّنۡهُ﴾ فنسب سبحانه وتعالى النعمة إليه ومنه تفضلاً وامتناناً، بينما لم يذكر فاعل الضر ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرٌّ﴾ لأن الضر غالباً أسبابه الإنسان، فهو الذي يُلحق بنفسه الضر، بما يرتكبه من المعاصي، مع تنوعها وتعددها. كما أن في تغييب فاعله حتى يشمل كل سبب ومشيئة من الله تعالى، وكذلك لإظهاره وإبرازه دون إشغال الذهن بفاعله وأسبابه. كما ورد إعطاء النعمة بدلالة معنى التخويل ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةً﴾ الذي يفيد المنح والإعطاء والإكساب للنعمة من دفع الضر تفضلاً من غير مقابل لهذا المصاب بالضر. وهو تدبير الأمر وكفايتهم فيه، بحيث لا يبذلون فيه جهداً لتحصيله، ولذلك يُقال: خال على أهله إذا دبر أمورهم وكفاهم، وخال الشيء عني واهتم به. ومنه كذلك: خَوَّل له صلاحيات الإدارة، أي: منحه السلطة عليها، والتصرف في شأنها. مما يبين تمام وكمال الإنعام إلى درجة تمكينه من النعمة أتم تمكين.

وبدأ التغيير والتحويل من الضر إلى النعمة بحرف الترتيب ﴿ثُمَّ﴾ الذي يفيد الترتيب والتعاقب والتغيير من حال إلى حال، كما أفادت ﴿إِذَا﴾ الشرط الذي حصل به الشرك ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةً مِّنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ فإنه أمر يدعو إلى غاية التعجب من شأنهم. إذ بعد اليأس والتضرع إلى الله تبارك وتعالى، إذا بهم يعودون لما كانوا عليه من الشرك. فيبطرون ويذهبون إلى ما كانوا عليه من الشرك، فيعودون إلى مَن لا يدفع عنهم ضراً، ولا يُقدم لهم نفعاً. وفي هذا بيان لرحمة الله تعالى، وكريم تعامله، وعظيم عطفه عزَّ وجل. ودليل على تعسف الإنسان بنفسه، وظلمه لذاته، مع الإصرار على ذلك. ولولا رحمة الله تعالى لعجل لهم العقوبة استحقاقاً لها بفعلهم وعنادهم وإصرارهم.

مما يبين أن الإنسان كثير النكران والجحود للنعم. وهو أمر يثير التعجب من حال هذا الإنسان الذي يجحد نِعَم الْمُنْعِم، بل يبالغ في كفره بالله تعال إلى درجة أنه يدعو ويرجو غير الله عزَّ وجل الذي أنعم عليه وَخَلَّصه مما كان فيه من الكرب، وذلك لشدة طغيانه في الكفر، بعودته إلى الشرك بتلك السرعة المفاجئة، التي تفيد المبالغة، إلا الذين وفقهم الله تعالى إلى الهداية، فآمنوا واهتدوا إلى صراط الله المستقيم. وفي هذا البيان من الله تعالى ما يفيد التنبيه والتحذير من هذا الْخُلُق الذميم، الذي اتصف به الإنسان، وكل بحسب ما فيه من هذه الخصلة الذميمة. التي تكون منه مع خالقه تبارك وتعالى، وكذلك تكون منهم مع غيرهم من الناس، فتظهر في حال هذا الإنسان حتى مع الذي أحسن وتفضل إليه من الناس. فكثيراً ما يتناسى فضائل من تفضل عليه من الناس. وكثيراً ما يعصي العبد ربَّه تبارك وتعالى، والذي أنعم عليه بنعمه التي لا تُعد، وإحسانه الذي لا يُحد، فيتغافل عنها وهو يعيش بها وفي ظلالها التي تغشاه في حياته كلها.

ثم يتجه الخطاب إلى إظهار كمال التهديد والوعيد من الله سبحانه وتعالى لمن كفر ﴿قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾ قل لهم أيها الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًا ﴾ لن يكون استمتاعك إلا وقتاً يسيراً مهما طالت بك الحياة، فاستمتاعك بكفرك وشهواتك بالنسبة للآخرة قليل جداً. فهو توجيه كريم، يحمل ويفيد التهديد لهم بأن يتلذذوا بما آتاهم الله تعالى بالطريقة التي يريدونها، المخالفة لمنهج الله تعالى، ليجدوا عاقبة ذلك في الآخرة. لأنهم يريدون الاستمرار فيما هم عليه من الاستمتاع بالفجور، فيتصرفون كما يريدون من الحرية المطلقة؛ دون قيود وضوابط للدين عليهم. وهو توجيه لهم بالتمتع على سبيل الوعيد والتوبيخ، أي: اكفروا؛ فإنكم سوف تعلمون ماذا تجدون وتلقون من عذاب الله تعالى بكفركم. أي: بعاقبة كفركم.

مما يبين أن سبب عودتهم للكفر هو تحصيل التمتع بما يحصلون عليه من الكفر والشرك، بمعنى أن سبب عودتهم إلى لشرك من أجل أن يبرروا لأنفسهم التمتع بما هم عليه من المفاسد، والجاه، وقيادة الناس، وإبقاء الأتباع. والسبب الآخر في عودتهم للشرك هو من أجل التمتع والتلذذ﴿تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًا ﴾ فانتفعوا بما أنعمنا عليكم أيها المشركون، حتى يحين موعد العذاب. والذي بينه سبحانه وتعالى بأسلوب الإغراء التحذيري ﴿تَمَتَّعۡ ﴾ بما يعود به عليك كفرك مما تراه استمتاع في مقاييسك المنحرفة ﴿تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًا ﴾ فما هو إلا وقت يسير فتجد عقابك على كفرك. فاستوفى براعة السياق الوجهين المقصودين. وهما التهديد بأسلوب الإغراء، والوجه الثاني: أن سبب عودتهم للشرك هو تحصيل ما يتمتعون به من عودتهم للشرك. مما يدل على الإعجاز البياني في تراكيب ألفاظ الآية الكريمة، لتعطي تلك المعاني الدقيقة.

ووصف سبحانه وتعالى هذا الاستمتاع بالقلة ﴿تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًا ﴾ لن يكون استمتاعك إلا وقتاً يسيراً مهما طالت بك الحياة، فهو بالنسبة للآخرة قليل جداً. فهي موعظة متشبعة بالتحذير والتنبيه، من أن الدنيا مهما طالت فهي قصيرة، ومهما كانت شهواتها فهي منقطعة وقليلة مع الآخرة التي لا نهاية لها أبداً. فالنتيجة هي ﴿إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾ فقد حكمت بفعلك وانحرافك أنك في الآخرة من أهل النار، الذين هم أصحابها، المصاحبون لها، فلا يخرجون منها. فقد أفادت ﴿أَصۡحَٰبِ ﴾ المصاحبة والملازمة وتوكيدها بنون التوكيد ﴿إِنَّكَ ﴾ الملتصقة بضمير الْمُخَاطَب. كما أفاد حرف ﴿مِنۡ ﴾ التبعيض، فإنك أيها المتمتع واحد من المصاحبين للنار، مما يبين أنهم كثير، وأنت واحد من ذلك الكثير. مما يبين مخاطر الشرك والكفر عموماً. وأن الحياة الدنيا مع الآخرة ما هي إلا متاع قليل. فالكيس لمن عمل لما بعد الموت، والتعيس من اغتر بالدنيا الفانية. ونسأل الله تعالى أن يجعلنا مِن أتباعه وأوليائه بفضله وكرمه.

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ ﴾

ينتقل البيان الكريم إلى تقرير الفرق والبون الشاسع والمتضاد بين المطيع لله تعالى وبين الكافر بربه سبحانه وتعالى، فقال جلَّ جلاله ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ ينفي عزَّ وجل ويستنكر المساواة بين المؤمن المطيع وبين الكافر العاصي، الذي أنكر الحق. وورد هذا النفي من خلال سؤال يحمل المقابلة والمقارنة المتغايرة والمتضادة بين الفريقين، ليقرر به تبارك وتعالى كذلك اختلاف الجزاء تبعاً لاختلاف الشأنين المتغايرين والمتضادين بين المؤمن والكافر.

فيبدأ البيان العظيم بتوصيف حال المؤمن في طاعته لربه ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ﴾ أي: قائم مطيع لله تعالى، وخاشع ذليل ومستكين بين يدي الله تعالى، لأن القانت هو المطيع. وقد خص الليل ﴿ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ ﴾ لأنه وقت الراحة، وكذلك أن عبادته سراً، لا يعلم بها أحد إلا الله سبحانه وتعالى، فهي خالصة لله عزَّ وجل. فَخُص من عموم أوقات القنوت وقت الليل ﴿ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ ﴾ ساعات الليل، وجوفه، لإفادة الكثرة من وقت الليل، ليشمل التعميم أوله وأوسطه وآخره. قال قتادة رحمه الله تعالى: ساعات الليل: أوله، وأوسطه، وآخره[1] ليفيد كثرة الخضوع والتذلل، والرجاء بالعبادة. وكذلك من أوصاف عبادة هذا المؤمن أنه ﴿ سَاجِدًا وَقَآئِمًا ﴾ فقال الله تعالى أنه ﴿ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا ﴾ فحاله في قنوته هو السجود والقيام ﴿ سَاجِدًا

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٧٦/٢٠)

وَقَآئِمًا ﴾ وهو بيان لحال قيامه الليل بالصلاة وقراءة القرآن، فالسجود دلالة على الصلاة، والقيام يجمع مع الصلاة القيام بتلاوة القرآن في الصلاة. إضافة إلى ما تتضمنه الصلاة من الذكر بالتسبيح والتعظيم لله سبحانه وتعالى.

ثم يخبر تبارك وتعالى بعلة وسبب ذلك القنوت من المؤمن، بأنه لسببين: الأول: ﴿ يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ ﴾ يخاف من عقاب وعذاب الله تعالى في الآخرة، فيبادر بالطاعة من أجل أن يحذر عذابها. والسبب الثاني هو: ﴿ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ فيأمل رحمة الله تعالى بأن يدخله الجنة. فيأمل الذي هو عند الله تعالى من الخير لأهل الطاعة، وهو دخول الجنة، والفوز بها. بما يفيد أنه ينتاب المؤمن أمران متضادان: الخوف والرجاء، وهما العاملان الأقوى، بل والأساسي في الاستقامة، وفي طاعة الله تعالى. فالخوف يجعل المؤمن يبتعد عن كل ما نهى الله تعالى عنه، والرجاء يدفعه نحو الإقبال على كل شيء هو طاعة لله تعالى. مما يفيد أن المؤمن الحقيقي هو الذي يكون حاله بتلك الحال. فأسباب الرجاء، وأسباب الخوف متوقدة في قلبه، ليظهر ذلك في سلوكه، وعموم طاعته. فلم يقطع لنفسه بحكم فيتواكل على ما يرجو. مما يبين أن عاملي الخوف والرجاء هما المصدران لاستقامة الإنسان بالبُعد عن الحرام، والتمسك بالحلال وبالطاعة، وإتيانها وفق ما شرعه الله تعالى. فتربية النفس على ذلك هي التربية الإيمانية الصحيحة.

ومن دقائق البيان أن الله تعالى عندما قارن المطيع بالعاصي وهو الكافر، أظهر البيان حال المطيع، ولم يُظهر حال الكافر، لأنه معروف بالضد الذي عليه المؤمن ﴿ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ وهذا من دقائق البيان، الذي عَلِم به التالي لكتاب الله تعالى من غير حاجة إلى ذكره.

ثم يأمر الله تعالى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقول لكل جاحد وكافر ﴿ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ فهل يمكن أن يستوي هذا المؤمن العالم العامل بما يجب عليه من شريعة الله تعالى وطاعته لربه، كمن هو عازف عن العلم والعمل بدين الله تعالى. فإن الجاهل في كل حال لا يمكن أن يستوي مع العالم في أي وجه من أوجه العلم والعمل. بما يفيد أن العالم بالحق ليس فهمه وعمله كمن جهل الحق. وكل بحسب جهله وعلمه.

فهي قاعدة في كل شأن، من أن العالم بما هو مطلوب منه لآخرته، وبما يحقق الفوز بها ليس كالجاهل المعرض عنها، ومن براعة البيان وفوائده أن دلالة المعنى ينسحب ويمتد شأن هذه القاعدة على كل شأن من

شؤون الحياة، مما يبين فضل العلم والعالم على الجهل والجاهل، وأن تمايز العلم بما يحققه للإنسان من الخير ويدفعه عن الشر، وأجل العلوم هو العلم بدين الله تعالى، فهو الذي يُوصل إلى مرضاة الله تعالى، وجنات النعيم في الآخرة، ويُبعد العبد عن سخط الله تعالى وعذابه.

ثم يحصر جَلَّ شأنه في أولي الألباب جانب التذكر المفضي للعمل بطاعته سبحانه وتعالى. فيقول عَزَّ وجل ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ فالذي يتذكر، فيعمل بما علم هم فقط ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ أصحاب العقول الصافية الصحيحة، الذين إذا أدركوا الحق عملوا به، ولزموه، وتركوا الباطل وأبغضوه وابتعدوا عنه. مما يعطي دلالة بأن كل منغمس في الشهوات والشبهات فإنه ليس من أولي الألباب، فلو كان لبيباً لما ترك لشهواته وشبهاته أن تلعب به في المترديات التي تُرديه في سخط الله تعالى. كما يفيد ذلك أن كل متمسك بأهداب الدين وفق شريعة الله تعالى هو شخص لبيب، إذ أدرك الحق فاتبعه، وعض عليه بالنواجذ. اللهم اجعلنا من أولي الألباب الذين يتذكرون بالعلم ويقومون بالعمل وفق ما أمرت وشرعت، بمنك وفضلك يا كريم.

ثم ينتقل السياق الكريم إلى ما وَجَّهَ اللهُ تعالى به عباده المؤمنين من خلال رسوله صلى الله عليه وسلم، بالتقوى، وبكريم جزائه للمحسنين، بما يدفعهم للإحسان، وتعليمهم ووعظهم بما يمكنهم من إقامة دينه سبحانه وتعالى، وطاعتهم لربهم عَزَّ وجل، فيخاطبهم مباشرة بقوله عَزَّ وجل ﴿ قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ فبدأ التوجيه الكريم للرسول صلى الله عليه وسلم بفعل الأمر ﴿ قُلۡ ﴾ أي: قل يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم وأعلن بيان ربك للناس، بما يفيد أنه عليه الصلاة والسلام هو المبلغ عن الله تعالى، وبما يفيد المنزلة والمكانة والحظوة له صلى الله عليه وسلم. وقد استهلت المخاطبة من الله سبحانه وتعالى لعباده بياء الخطاب ﴿ يَٰعِبَادِ ﴾ وهذا النداء يحمل في دلالته لفة الانتباه، وإرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه، وبما يفيد أخذه بعزم وأهمية وجدية، وكذلك تضمن تسمية الْمُخَاطَبين بصفة العباد، العابدين، وأضافهم لنفسه تبارك وتعالى إضافة تشريف وتكريم، لإيمانهم وطاعتهم وامتثالهم.

ثم يؤكد عبوديتهم بصفة الايمان ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ وهي تزكية لهم من الله تعالى بتحقيقهم الإيمان وتحقيق العبودية، بل إن جملة ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ تفيد: الذين اتصفوا بالإيمان، وتحقق فيهم، فأصبحت سمة وصفة ثابتة فيهم، ويُعرَفُون بها. وهي من أرقى درجات الوصف والمدح والثناء، وهي تزكية رفيعة من الله تعالى للمؤمنين. لِمَا كان منهم من الطاعة المتضمنة للخوف والرجاء كما في الآية السابقة.

وكذلك فيها بيان لِمَا يستلزمه هذا الوصف من الامتثال لطاعة الله تعالى، وكذلك تَحْمِلُ في دلالتها التكريم للمُخَاطَبين، إذ ناداهم ربهم ﴿يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وهي رتبة وتزكية عظيمة ومنحة كريمة أن ينادي ربنا تبارك وتعالى ممن أطاعوه بهذه الرتبة الجليلة والمنقبة الرفيعة، التي تحمل إثبات الإيمان لهم، وعبوديتهم له جَلَّ جلاله، وتوحيدهم لربهم عَزَّ وجل. والتزكية لهم، بما ينتفي معه التعذر من عدم الوفاء بمضمون ما خُوطِبُوا به وله؛ وأُمِرُوا به. كما تفيد تبجيلهم من ربهم بالتخصيص، فأنتم المخاطبون أيها المؤمنون.

ومن الفوائد السلوكية: أنه إذا كان الله تعالى ينادي عباده بهذا النداء الكريم، وهذا اللطف العظيم وهو سيدهم ومولاهم وخالقهم، وهم عبيده، فإن العبد أحوج إليه في أسلوب مناداته ومخاطبته وتعامله لغيره من المخلوقين، خاصة عند التوجيه والطلب أو الأمر، فإنه أدعى للتفاعل والقبول، وتليين القلوب.

ثم بعد هذا النداء بالخطاب الكريم من الله تعالى لعباده، يبين لهم أهمية التقوى، ويأمرهم بلزومها ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ فالزموها، والتزموا بها في حياتكم. فمضمون الخطاب هو التزام التقوى ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ وسبب وعلة ما سبق من النداء لهم بهذا الخطاب هو ليدعوهم للتقوى وتحقيقها في نفوسهم وأعمالهم ﴿يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ فكانت مقدمة لهذا الأمر العظيم، بما يسترعي أسماعهم، وشد انتباههم، ولَفْتِهِ لأمر عظيم جليل، فإن الأمر والشأن يستدعي أسلوب النداء، لإثارة آذان الْمُخَاطَبِين للإصغاء، وعقولهم للانتباه إلى ما بعده من كلام وخطاب من رب العالمين. مما يدل على أهمية ما ناداهم إليه ربهم تبارك وتعالى من البيان، وما يجب عليهم من الانتباه له بجد واهتمام، وأخذه بكمال تعقل أولي الألباب. فالْمُنَادَى لَهُ هو تقوى الله تعالى ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ لبيان عظمة شأن التقوى. لِمَا تتضمنه من الخشية والخوف منه عَزَّ وجل فيتحقق بها لزوم العمل بطاعته سبحانه وتعالى، واجتناب ما نهى عنه وزجر جَلَّ في علاه.

فهو أمر بتقواه عَزَّ وجل عن علم ورغبة ورهبة ومحبة له تبارك وتعالى، حيث ارتبطت التقوى بربوبيته ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ فهو ربكم، إذ أن كلمة ﴿رَبَّكُمْ﴾ تُقَرِّر للناس ربوبيته سبحانه وتعالى، حتى في بنية الكلمة، بإضافة ضمير المخاطبين إلى كلمة الرب، التي يتقرر بها أن الله تعالى ربكم، وما يلزمكم ويجب عليكم من تقواه، كما أن في تلاصق وترابط وتتابع كلمة التقوى بكلمة ربكم ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ ما يفيد استحقاق التقوى منكم له وجوباً. إذ أن الرب هو المربي لجميع العالمين بهديه ونعمه، فهو الذي رباكم بالنعم وبما ترونه من ملكوته الدال على ألوهيته، وعظيم سلطانه سبحانه وتعالى.

ثم يبين لهم تبارك وتعالى ثمرة الإحسان ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ أي: للذين أحسنوا أعمالهم في الدنيا، فإن لهم في الآخرة ﴿حَسَنَةٌ﴾ وهي المثوبة والأجر، بتحصيل الجنة، التي فيها الحياة الطيبة، والمنزلة العظيمة الكريمة. وقد وردت الحسنة ﴿حَسَنَةٌ﴾ عامة، لتشمل دلالتين: الأولى: في الآخرة، بتحصيل الجنة، والثانية: تجمع شأن الدنيا مع الآخرة. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: أي: للذين عملوا الأعمال الحسنة في هذه الدنيا على وجه الإخلاص حسنة عظيمة وهي الجنة. وفي حال أن قوله تعالى ﴿فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ هو متعلق بحسنة ﴿حَسَنَةٌ﴾ على أنه بيان لمكانها، فيكون المعنى: للذين أحسنوا في العمل حسنة في الدنيا، بالصحة والعافية والظفر والغنيمة(١) ليدل مبنى السياق احتواء الدلالتين بسياق واحد، من غير حاجة إلى بناء سياقين متعاقبين. وهذا من براعة البيان، ليدل على قوة الإعجاز في بناء السياق لمعنيين حقيقيين، ومتضافرين وغير متعارضين. وهما الجنة في الآخرة، والتوفيق والظفر بالخير في الدنيا، من الطمأنينة والسكون، وراحة البال، والعافية والصحة وعموم الخير. ونسأل الله تعالى جميع ذلك.

كما وردت ﴿حَسَنَةٌ﴾ عامة ليدل على سعة العطاء، فإن من سعة العطاء أنها لم تُحصر في نوع، أو مقدار، بل جاءت مطلقة عامة لتشمل جميع الْحُسن الذي خلا من الشر، فتشمل كمال السعادة في الرزق والصحة والعافية، والتوفيق للطاعة، واليقين الذي يسعد به المؤمن في الدنيا بما يكون عليه من التوكل والتفويض إلى الله تعالى الذي تطمئن به قلوب المؤمنين وتسعد. كما تتضمن سعة السعادة وتمامها وكمالها في الآخرة، بتحصيل الجنة.

ثم يتجه الخطاب إلى بيان سعة الأرض، التي يمكن للمؤمن من خلالها إقامة دينه، فإن ضاق عليه الأمر في جهة توجه لجهة أخرى من الأرض، فقال تعالى ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ فأرض ربكم واسعة، ممتنع فيها التضييق والضيق عليكم، فإن ضاق عليكم الأمر في مكان فاطلبوه بالانتقال إلى غيره. ومن دقائق البيان أن نَسَبَ اللهُ تعالى الأرض إليه ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ﴾ بما يفيد أن ما يفوتكم هنا لن يفوتكم في أجزائها الأخرى، فملكها لله تعالى، ليس ملكاً لأحد. فليهاجر من ضاقت به في جزء من الأرض إلى حيث يمكنه إقامة دين ربه سبحانه وتعالى وفق ما شرع. فلا يعتذر أحد بموطنه، وبما يفيد أن الموطن ليس بحجة على أن يقول العبد مُنِعت من إقامة الدين، أو في طلب الرزق، أو أي مصلحة يبتغيها العبد. فإن أرض الله تعالى واسعة، تسعكم للهجرة، فحجة من تعذر بها باطلة، كما يفيد هذا أنكم قادرون على الهجرة، إذ لو لم يكونوا قادرين لَمَا كان هذا البيان

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٤٥٣/٤)

التقريري بسعة الأرض التي يمكنهم التنقل فيها. مما يفيد أن الادعاء الباطل، وتلمس الاعذار الواهية لا يُجْدِي شيئاً، وأن الدين أجل ما يهاجر الإنسان من أجله. كما هاجر صلى الله عليه وسلم ومعه المهاجرين من مكة إلى المدينة. كما يفيد ذلك أنه حتى في مجال الأرزاق، فمن ضاقت به في جهة فليبحث في أرض الله تعالى الواسعة.

ولما أن الإنسان المؤمن قد يقابل في حياته مشقة الانتقال بدينه، أو لأي أمر من الأمور فقد حثه على الصبر، مقابل عظيم الجزاء ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ لأنه عليم سبحانه وتعالى بحاجة هذا الأمر إلى الصبر، بمثل ما صبر الرسول صلى الله عليه وسلم والمهاجرين على هجرتهم. فيستوفي لهم سبحانه وتعالى مقابل صبرهم كمال المثوبة التي بالغ عَزَّ وجل في إعطائها لهم بأنها ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وكذلك يشمل عموم البيان معالجة حال إن لم يستطع الترحال في الأرض، فيتحلى بالصبر على البقاء والتمسك بدينه، وعلى مشقة الحياة. وهذه معالجة لما قد يقابل المؤمن في حياته من عدم القدرة على الترحال والانتقال، أو وجود ما قد يعتريه من الضيق، فيعالج الله تبارك وتعالى ذلك بالركون إلى الصبر على مشاق الحياة، ويُحَفِّز ويُرغِّب سبحانه وتعالى إلى ذلك بالأجر العظيم، واستيفاء كامل الأجر والمثوبة في سبيل أداء الطاعة، ولو أن يتحمل المشاق باستدعاء الصبر.

فيقول عَزَّ وجل ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فيستوفي لهم سبحانه وتعالى مقابل صبرهم كمال المثوبة التي بالغ عَزَّ وجل في إعطائها لهم بأنها ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بما يفيد تعظيم سعة العطاء، فلا يستطيع أحد أن يحسب ما يجده الصابر من الثواب مهما بلغ من القدرة على الاستقصاء والحساب، بما يفيد أنه لا يُكال لهم بمكيال يقابل ما كان منهم، ولا يوزن لهم بميزان يقابل ما كان من صبرهم، .ل هو فيض لا حدود له من العطاء. فلا يستطيع تقديره بقدر محدد ومعين. وبما يفيد المبالغة في الجزاء إلى حد لا يخطر ببال الصابر. بل من قوة المبالغة استخدام أسلوب الحصر ﴿إِنَّمَا﴾ التي أفادت: أنه لا يُوفَّى الصابرون أجرهم إلا بغير حساب.

ثم يخبر الله تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بما يقوله للمشركين، بأن يُعلن لهم توحيده لربه عَزَّ وجل، وأنه هو الأمر والشأن الذي أمره الله تعالى به، ولا يحيد عنه، وأنه الهدف والغاية التي يجب أن يتمثل بها النبي صلى الله عليه وسلم ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ قل يا أيها الرسول للناس ﴿إِنِّيٓ أُمِرْتُ﴾ فإني مأمور شرعاً من الله تعالى أن أعبد الله تعالى بإخلاص الدين له وحده لا شريك له، مما يفيد لن أخالفه أبداً. والأمر يقتضي الوجوب ﴿أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾ فأعبده وحده، وأن تكون هذه العبادة مجردة من جميع أنواع الشرك ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ فتكون خالصة لله تعالى وحده لا شريك له. فاعبد ربك أيها النبي

بإخلاص العبادة والدين كله له وحده لا شريك له. ليشمل ما ظهر منها وما بطن، لتنتفي جميع المقاصد التي تتعارض مع الإخلاص. بما يفيد: أنه إذا كان رسوله صلى الله عليه وسلم مُكَلَّف بالإخلاص فإنه منهج عام لكل العباد، بأن يخلصوا الدين لله تعالى، ظاهراً وباطناً، وفي السر وفي الجهر.

فأبطل سبحانه وتعالى الشرك من خلال تقرير إخلاص العبادة له وحده لا شريك له. فدين الله تعالى هو الدين الذي خَلُص من جميع شوائب الشرك والرياء، ومطالب السمعة ومراءات الناس، فلا تكون العبادة إلا لله تعالى إخلاصاً بالعمل، وإخلاصاً بالقول، وإخلاصاً بالقلب. مما يفيد أن الدين المقبول عند الله تعالى هو الخالص لله عَزَّ وجل وفق ما شرع. مما يُوجب على المسلم الذي يريد مرضاة الله تعالى أن يخلص الدين كله لله تعالى وحده لا شريك له. فلا يقبل سبحانه وتعالى من العمل إلا ما كان خالصاً له وحده لا شريك له، ووفق ما شرع.

ومن دقائق البيان أن تسمية جميع مفردات الطاعة لله تعالى بالدين ﴿ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ ليستوفي جميع أنواع العبادات الواجبة، والنوافل، ومفردات الطاعة من الأخلاق والتخلق، وفعل الصدقات، والمساعدات والإعانة وغيرها من أعمال البر، بل ليشمل جميع سلوك الإنسان الذي أمر الله تعالى به العبد أن يسلكه، بأن يتصف بالإخلاص الذي خلص من كل ما يشوبه من أضداد الإخلاص. فدلالة كلمة ﴿ مُخۡلِصٗا ﴾ تفيد الطُّهر والنقاء والصفاء والسليم السالم من كل ما يشوبه ويلوثه، سواء من الشرك الأكبر، أو الشرك الأصغر كالرياء، أو السمعة. وبالتالي أن يكون دين المؤمن هو طلب لمرضاة الله تعالى، محبة وإخلاصاً له عَزَّ وجل. وهو تجريد المتابعة لله تعالى وحده لا شريك له في جميع مفردات الدين. وفي هذا ترقية وعلو واستعلاء لسلوك المؤمن، بأن يتوجه به لربه وخالقه الذي لا يستحق العبادة غيره جَلَّ جلاله. مما يعني أن العبادة وعموم الطاعة المقبولة عند الله عَزَّ وجل هي المتصفة بصفتين: الأولى: عبادة الله تعالى بما شرع ﴿ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ ﴾ والذي يمثله الدين الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم. والثانية: إخلاص الطاعة له سبحانه وتعالى. كما قال عَزَّ وجل ﴿ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ فيلزم أن يكون خالصاً نقياً لله تعالى.

ثم يتدرج البيان إلى الإعلان والإعلام بأنه صلى الله عليه وسلم أول مؤمني هذه الأمة ﴿ وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ فقد أمرني ربي أن أكون أول المسمين في هذه الأمة، بما يفيد أن يكون هو القدوة والأسوة لغيره في هذا الدين. بل فيه الإشادة بهذه المنزلة العظيمة، والمكانة والمنقبة والمنزلة بأنه هو المخصوص بالقدوة والأسوة والاتباع. وقد أظهر سياق الآية دلالات عظيمة بسبب لام التعليل ﴿ لِأَنۡ ﴾ أي: أنني أمرت

بما أمرت به لأكون أول المسلمين. ومن وجه آخر تفيد التأكيد. أي: تأكيد ما أمره الله تعالى به، ليكون أول المسلمين.

ويستمر الأمر من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم بما يقوله للمشركين، فقال عَزَّ وجل ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ قل لهم أيها النبي صلى الله عليه وسلم إنني أخاف عاقبة معصية ربي فيما أمرني به، وهو عاقبة ذلك اليوم المتصف بأنه ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أي: من عذاب يوم القيامة. بما يفيد التعريض لهم بما هو قادم من العذاب لمن كفر، وتأكيد بوقوع يوم القيامة، والبعث والحساب والجزاء.

وقد ورد التعميم في الخوف من المعصية ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي ﴾ ليستوعب ويشمل جميع أنواع المعصية، سواء في الأداء والامتثال، أو في الإخلاص له سبحانه وتعالى، وليشمل جميع مفردات شريعة دين الله تعالى. وبما يفيد أنكم معنيون بهذا الأمر، وبهذا الوعيد، وما أنا إلا رسول لكم، أحذركم من عذاب يوم عظيم. وأن هذا العذاب لن أسلم منه فيما لو عصيت ربي. فعذاب المعصية يشمل جميع العصاة مهما كانت منزلته. ولذلك أخاف من معصية الله عَزَّ في علاه. فخافوا ربكم جَلَّ جلاله.

ويستمر التوجيه الكريم من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بما يقوله للمشركين المكذبين ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴾ ويتكرر الأمر للنبي صلى الله عليه وسلم بفعل القول ﴿ قُلِ ﴾ لبيان أن ما يقوله عليه الصلاة والسلام هو امتثال لما أمره الله تعالى به من الفعل والقول، وأنه لا يقوم بشيء من تلقاء نفسه، وبما يفيد أن هذا الدين لا يُزاد فيه ولا يُنقص منه. فقل لهم أيها الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ ٱللَّهَ أَعْبُدُ ﴾ أعبد الله وحده لا شريك له. فهو تأكيد لِمَا سبق، فإنني أعبد الله تعالى فقط ﴿ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴾ مخلصاً ومفرداً له بالعبادة والطاعة، والامتثال لكل ما أمر به أو نهى عنه عَزَّ وجل. وهنا لم يقل: مخلصاً له عبادتي، بل ﴿ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴾ ليشمل جميع مفردات الدين، وليستوعب كل شيء من مفردات الدين، ما كان واجباً، وما كان نفلاً، وما كان مباحاً. لأن الدين شامل لكامل الحياة.

ثم يقول لهم من باب المتاركة ﴿ فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ فبعد البيان بما أمره الله تعالى به من إخلاص الدين لله عَزَّ وجل، فيقول لهم عليه الصلاة والسلام على سبيل المتاركة: أما أنتم فاعبدوا ما شئتم، وهو ليس من باب التخيير، ولكن من باب الترهيب والتهديد المنعطف على التخيير التحذيري. وكذلك من باب أنني لا أملك

عليكم الهداية، ولست مكلف بإلزامكم وإرغامكم على ما أريده وأرجوه لكم من الخير ﴿ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ ﴾ فاعبدوا ما شئتم من المعبودات من دونه سبحانه وتعالى، وكل شيء هو دون الله تعالى، حقير وذليل له عَزَّ وجل.

ثم يستمر الأمر للرسول صلى الله عليه وسلم بما يبينه ويقوله للكفرة المشركين. فقال تبارك وتعالى ﴿ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ ﴾ اعلموا أن حقيقة الخسارة الحقيقية هي ما يكون يوم القيامة، عندما يفقد الإنسان حظه من النعيم المقيم، ويستبدله بمثوى الجحيم. يوم يفقد الإنسان نفسه المكاسب العظيمة، ويجعل نفسه تخسر كل نعيم. إذ أن الخسارة تعني حدوث الغبن بفوات وترك النعيم المقيم، ودخول الجحيم المقيم. فتعم خسارتكم حتى أهليكم ﴿ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ ﴾ فمع خسارتهم لأنفسهم، كذلك تحققت لهم الخسارة في أهليهم، بعدم صحبتهم، إما بنجاة أهليهم لإيمانهم، أو بأنهم معهم في النار، ولكن كل مشغول بنفسه، وتأتي خسارتهم لأهليهم على وجه أنهم تسببوا كذلك في خسارة أهليهم بأن اقتدى الأهل بهم. فمن دقائق البيان أن شملت خسارتهم لأهليهم الوجهين الكائنين في ذلك: إما بعدم مرافقتهم لمن أسلم من أهليهم إلى الجنة، وإما لأنهم ألحقوا بهم الخسارة بما كان من إغوائهم واقتدائهم بهم، فخسروا أنفسهم وخسروا أهليهم، وألحقوا بهم الخسارة معهم. والمتأمل أن كلا الحالتين ممكنة التحقق، فاستوعب البيان بدقته وإعجاز تراكيب كلامه تلك الحالتين المتوافقتين، غير المتضادتين. ليظهر لكل أحد أن أهذا القرآن لا يمكن أن يكون إلا من الله سبحانه وتعالى.

ثم يؤكد تبارك وتعالى حقيقة تلك الخسارة بقوله عَزَّ وجل ﴿ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ فإن هذه الخسارة هي الخسارة الحقيقية، وهي الخسارة الظاهرة الواضحة التي بانت واتضحت، لأنه لا يمكن معالجتها، وتعويضها بأي حال من الأحوال، فانتبهوا واتعظوا أيها الناس. وقد بدأ التأكيد بحرف التنبيه ﴿ أَلَا ﴾ الذي يفيد التنبيه والاهتمام لما بعده من بيان، وهو الإعلام والتأكيد بأن هذا هو الخسران الحقيقي. فاغتنموا سعة الحياة، وإصلاح النفس قبل فوات الأوان. وقد وصف سبحانه وتعالى هذه الخسارة بالخسارة الواضحة ﴿ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ الخسران الواضح الذي يجب أن يتجنبه العاقل من الناس، كما وردت بصيغة الحصر والمبالغة في قوة خسارتها، حيث قال الله عَزَّ وجل ﴿ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ أي: الخسارة التي لا يرتاب فيها أبداً، لأنها الخسارة التي لا يمكن تعويضها، فاحذروا تلك الخسارة بما يجب من الطاعة والامتثال لله رب العالمين.

ثم يبين سبحانه وتعالى لعباده صفة تلك الخسارة المتأججة بعذاب النار الشديد، فقال عَزَّ وجل ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾ فإن لأهل تلك الخسارة أطباق متتالية من النار ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ فتحيط بهم من أعلاهم أطباق تتوقد من النار الشديدة ﴿ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ وكذلك من تحتهم مثل ما هو من فوقهم، أطباق بعضها فوق بعض من النار، فتتأجج تلك الأطباق عليهم من كل جهة.

ثم يبين سبحانه وتعالى علة وسبب إيضاحه ذلك لعباده ﴿ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ﴾ أي: يحذرهم بما أخبرهم وأعلمهم به. وهذا من كمال رحمته بعباده سبحانه وتعالى، إذ يعظهم ويحذرهم، ويرهبهم من الوقوع في الشر. لأن الرحيم يُحَذِّرُ غيره من الوقوع في الشر، بل من رحمته أنه يخاطبهم بالعبودية سبحانه وتعالى، وينسبهم إليه ﴿ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ﴾ بل تتأكد بتكرارها بما بعدها ﴿ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾ فيناديهم مناداة المشفق عليهم من رحمته سبحانه وتعالى ﴿ يَٰعِبَادِ ﴾ فيبتدئهم بياء النداء، الذي يفيد شد الانتباه للتحذير الذي يحذرهم منه، ويُلحِقُه بالعبودية ﴿ يَٰعِبَادِ ﴾ ليقول لهم ﴿ فَٱتَّقُونِ ﴾ أي: احذروا معصية ربكم التي تأخذكم لما أخبركم به من العذاب العظيم والشديد. وابتعدوا عن المعاصي الموجبة لهذا العذاب. فهذه موعظة عظيمة من رب رحيم بعباده، حتى إذا أخذ عبده بما يستحقه من العذاب يكون ذلك الأخذ مُحِقّاً ومستحقاً لما ناله من العذاب، لأنه لم يمتثل لما حذره ربه منه تبارك وتعالى، فتمادى في المعصية. ونسأل الله تعالى حُسن الخاتمة بفضله وكرمه.

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ
فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ
ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن
تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ
فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ
لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

ثم بعد بيان الله تعالى لِمَا يستحقه الكافرون من العذاب الشديد، وما يتحقق لهم من الخسارة الفادحة التي أضاعوا بها جنات النعيم، يوضح ويبين عَزَّ وجل حال الطائعين له، فيقول تبارك وتعالى ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ﴾ فأولئك المؤمنون الذين اجتنبوا طاعة الشيطان، فابتعدوا عن عبادة غيره عَزَّ وجل، وابتعدوا عن معصية الله تعالى، فأخلصوا الدين لله تبارك وتعالى، وتابوا إلى الله جَلَّ جلاله، فلهم من ربهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

وقد وصف الله تعالى المؤمنين هنا بالصفة المضادة لأهل الشرك والأوثان ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ لإظهار حقيقة التوحيد في مسلكهم وعبادتهم وتوجههم بأنه مبني على الإخلاص الكامل لله تعالى، فلم يتوجهوا لغيره بأي معبود من دونه سبحانه وتعالى. وورد تسمية تلك المعبودات بالطاغوت ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ الذي هو وصف لكل ما عُبِدَ من دون الله عَزَّ وجل. وقد جمع وصف الطاغوت ما ذكره العلماء، حيث قال مجاهد رحمه الله تعالى: الشياطين، وقال ابن السائب رحمه الله تعالى: الكهنة، وقال مقاتل رحمه الله تعالى: الأوثان[١] فقد استوفت دلالة الطاغوت كل ما يُعبد من دون الله تعالى. فإن هؤلاء المؤمنين قد اجتنبوا كل معبود غير الله تعالى، فوحدوا ربهم عَزَّ وجل.

واتصفوا كذلك بالتوبة والرجوع إلى ربهم جَلَّ جلاله ﴿وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: رجعوا إلى ربهم بالطاعة والخضوع، وبالتوبة عند كل تقصير، وعند كل زلة تحصل منهم. فصفتهم أنهم دائم الرجوع إلى ربهم في كل شأن، وكذلك راجعون لربهم في دينهم، ومطالب العبادات، وجميع شؤونهم. وكذلك منصرفون عما سواه. فهؤلاء تحققت لهم البشارة من ربهم تبارك وتعالى ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ وهي الجنة في الآخرة، والفضل والتوفيق والتسديد ومعية الله تعالى لهم في الدنيا. والبشارة هي الإخبار بما يسر من الخير.

ثم يأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يبشر عباده بهذه البشارة ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ﴾ فبشر أيها الرسول عبادي بهذه البشارة، وهؤلاء العباد هم ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ الذين عندما يستمعون للأقوال يأخذون بأحسنها وأجودها، ويتركون ما هو دونها. قال ابن جرير رحمه الله تعالى: فبشر يا محمد عبادي الذين يستمعون القول من القائلين، فيتبعون أرشده، وأهداه إلى الحق، وأدله على توحيد الله تعالى والعمل بطاعته، ويتركون ما سوى

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٠/٧)

ذلك من القول[١] وأرشد الأقوال وأحسنها هو القرآن الكريم، وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم، وبالتالي عندما ينهاهم المشركون عن الإيمان، ويزينون لهم المعصية، مقارنة بما جاء في القرآن وما نصحهم به الرسول صلى الله عليه وسلم، فإنهم يتبعون الأحسن والأخير، وهو هدي القرآن وكلام ومواعظ الرسول عليه الصلاة والسلام. مما يبين أن من موازين الترجيح التي يجب أن يسلكها الإنسان هو اتباع الخيار الأفضل والأحسن.

فقد تَمَيَّزَ هؤلاء بأمرين: الأول: هو الاستماع والإنصات ﴿ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ ﴾ مما يفيد أهمية حُسن التلقي بِحُسن الاستماع والإنصات والتدبر، ثم يليه ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾ وهو تقرير الاختيار وفق الأجود والأحسن، ثم العمل به، وعدم مصادمته بالاستكبار والأنفة من اتباع الحق. وقد استوعبت كلمة ﴿أَحۡسَنَهُۥٓ﴾ مجمل جميع التفاضل الذي يدركه العاقل بعقل الإدراك الذي وهبه الله تعالى له.

فهذا الصنف من الناس هم أهل المدح والثناء عليهم من ربهم تبارك وتعالى، بأنهم ﴿أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ أصحاب التعقل واختيار الأحسن والأكمل ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ فأولئك المتصفون بما ذكره الله تعالى هم الموفقون بهداية الله تعالى لهم، فأوصلهم إلى الحق، ليظفروا به في الدنيا والآخرة، وكذلك ﴿ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ أي: أهل العقول الصحيحة، والفطرة المستقيمة، لأنهم انتفعوا بعقولهم، بينما غيرهم لم ينتفع بما حباهم الله تعالى من العقل. مما يفيد أن هناك من يستخدم عقله في الخير، وهناك من يُعطِّل عقله بسبب شهواته وشبهاته، فيقدمها على الأحسن وألفضل من القول والوعظ والإرشاد.

ومن دقائق البيان استخدام اسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ لإفادة التعظيم بالإظهار. وتكراره مرة أخرى ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾ لإفادة التبجيل والمدح، وإظهار ما كان منهم من التعقل والاتباع، وبما كان من توفيق الله تعالى لهم بإعانتهم على الحق. ولإفادة أنهم هم لا غيرهم الذين وفقهم الله تعالى بهدايته ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ وأما غيرهم فلم يحظوا بهذا الفوز، وهذا المدح والثناء لهم من ربهم تبارك وتعالى.

ثم يخبر الله تعالى بالذين اختاروا ما يتحقق به العذاب عليهم، وذلك بإصرارهم وإلحاحهم على الكفر، حتى تحققت فيهم أنهم من أهل العذاب بالنار ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴾ فهذا الذي تحققت فيه ما يستحق من العذاب بسبب إصراره وتشبثه بالكفر والباطل فإنه مهما حاولت معه

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٨٤/٢٠)

لإنقاذه لن تتمكن من ذلك. فورد البيان بصيغة السؤال الذي يُظهر تمادي صاحب الكفر في كفره ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ فهل من استوجب العذاب، حتى تحقق فيه ما يستحق، كمن أنجاه الله تعالى بسبب طاعته؟ سؤال اقتصر على من استحق العذاب من غير ذكر المضاد له، وهم أهل الجنة، وذلك لظهور دلالته من غير ذكره. وهذا من دقائق البيان وقوة بلاغته بالاستغناء عما غيره يُغني عنه. ثم يلحق به السؤال الذي يبطل إمكانية إنقاذه، لإصراره على ما هو عليه من الكفر، حتى كُتب عليه بما هو عليه ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ فهل تستطيع أن تنقذه من النار، وهو الذي أراد بإصراره الدخول في النار؟ فكما أنه ليس لأحد أن ينقذ من كان في نار جهنم. فكذلك من كان حاله هو حال من أوصل نفسه إلى جهنم. ومن أمثلة ذلك نبي الله تعالى إبراهيم عليه السلام لم يستطع إنقاذ أباه، ونوح عليه السلام لم يستطع إنقاذ ابنه، فكيف بغيرهم ممن تشبث بأسباب النار. فعالج هذا البيان حرص النبي صلى الله عليه وسلم على إنقاذ الناس من الكفر، وما يؤول بهم إليه من النار.

ثم يثبت الله تعالى حكماً للمتقين، مغايراً ومناقضا للكافرين، لأنهم أهل طاعته سبحانه وتعالى، فابتدأت الآيةُ الكريمةُ بأداة الاستدراك ليزداد المدح والثناء والتبجيل لهم من ربهم سبحانه وتعالى، فيقول عَزَّ وجل ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ أما الذين اتقوى ربهم لهم عظيم الفوز، بما أعده الله تعالى لهم من المنازل العالية، التي تجري الأنهار من تحتها، وأن هذا وعد من الله تعالى للمتقين، وهو الذي لا يُخلف ما وعد به عباده.

وقد افتتح الله تبارك وتعالى هذا المزيد من الفضل والمدح والإشادة بالمؤمنين بحرف الاستدراك ﴿لَٰكِنِ﴾ لزيادة تقرير ما اختصهم الله تعالى به، مع إظهار وتعظيم الفارق بينهم وبين أهل النار. فأظهر التباعد والتضاد بين الفريقين. وسماهم هنا بالمتقين ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾ فهؤلاء الذين خافوا مقام ربهم، وارتجوا ما عنده من النعيم ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ فلهؤلاء من ربهم تبارك وتعالى في الجنة من النعيم منازل رفيعة، من حجرات متتالية في الارتفاع، بعضها فوق بعض، فهي عبارة عن طوابق فوق بعضها البعض، وببناء غاية في الجمال والإحكام، فهي منازل عاليات مزخرفات ﴿مَّبْنِيَّةٌ﴾ أي: مشيدة، جاهزة، منتهية البناء، ولا يحتاجون زيادة من كثرتها، واستيفائها لكامل مطالبهم ومتطلباتهم.

ومن مزيد جمالها ورونقها أنها ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ فهي مُطلَّة على أنهار متدفقة. وقد ورد البيان للأنهار بصيغة الجمع، ليدل على كثرتها وأنها تتدفق من تحت تلك المباني، فيزداد بها المؤمن سعادة وبهجة وسروراً. اللهم نسألك الجنة لنا وللمسلمين أجمعين يا رب العالمين.

ثم يؤكد تبارك وتعالى ذلك بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ ﴾ فهذا وعد من ربكم للمتقين. وأن الله ربكم ﴿ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ فإن ربكم إذا وعد بوعدٍ فإنه متحقق كما وعد، فإن ما وعد الله تعالى به لا يتغير ولا ينقض مما وعد به وقرره عَزَّ في علاه، فما وعدكم به ربكم أيها المؤمنون ستجدونه كما وصفه ووعدكم به. فليس ربكم مخلف ما وعدكم به. وفي هذا مزيد تحفيز للطاعة والثبات عليها بأسلوب التأكيد.

ثم بعد بيان الله تعالى للجنة وما فيها من النعيم، وبما يدفع ويُشَوِّق العباد إليها بطاعة ربهم عَزَّ وجل، أتبع هذا البيان بوصف ما في الدنيا من الآيات التي تؤكد لهم قدرة الله تعالى، ومنها البعث والنشور والحساب والجزاء، وحقيقة ما وعد الله تعالى به. فيتوجه الخطاب إلى جميع العباد؛ بما يلفت الانتباه؛ ويستثير الأذهان للتأمل في عظيم تدبيره سبحانه وتعالى في هذا الكون الفسيح، فيقول عَزَّ وجل ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ ألم تر أيها المُخَاطَب إلى السحاب في أعلى السماء، فأنزل الله تعالى منه ماء على الأرض. فتأمل كيف أسقى الله تعالى الأرض من علو السماء بما في السحاب من الماء الذي يجري به الله تعالى في هذا الارتفاع العظيم، ثم سلك بهذا الماء ينابيع تنبع من الأرض بالماء المتدفق، ثم يُخرج بهذا الماء الزروع المختلفة في شكلها وأحجامها، وفي تنوع ثمارها، ثم تتحول هذه الأعشاب بحرارة الشمس إلى الموت والتلاشي، باصفرارها وفنائها، ثم يجعله متكسراً متفتتاً بعد أن كان قائماً وزاهياً بقوته واخضراره. إن في هذا التدبير لذكرى يتذكر ويتعظ بها أصحاب العقول السليمة.

وأورد الله تعالى هذا التوجيه الكريم، تبياناً وإيضاحاً بأن الذي أنزل المطر من السحاب المسخر بين السماء والأرض، ثم اخضرار الأرض بعد جفافها، دليل على الإحياء بعد الإماتة، وتأكيد للبعث والنشور، ودليل على لطفه وعنايته ورحمته بعباده، وأنه على كل شيء قدير، ومنها الإماتة ثم الإحياء، بما يؤكد حقيقة البعث والنشور. فبدأ التوجيه الكريم بسؤال تقريري لما يشاهده المخاطبون من عباده ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ ألم تر بعينك وقلبك وبصيرتك؟ وذلك لشد الذهن والحس والانتباه إلى المرئي الذي سيذكره الله سبحانه تعالى عن إحياء الأرض بالزرع بعد موتها بجفافها. ولبيان عظمته التي لا يمكن أن يتغافل عنها الرائي، أو يتعذر من رؤيتها. وجملة ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ تفيد الاستفهام على سبيل التقرير بما هو معروف ومتقرر عند المُخَاطَب، فَيُلْجِئُهُ إلى الحقيقة

والبرهان والدليل المحسوس الذي يشاهده بعينه وبصيرته. وورد الخطاب الاستفهامي ﴿ أَلَمۡ تَرَ ﴾ دون تحديد وتعيين فرداً بعينه من الْمُخَاطَبِين ﴿ أَلَمۡ تَرَ ﴾ ألم تشاهد أيها المخاطب، دون تحديد، ليشمل النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين والمشركين، وجميع عباده منذ نزول هذه الآية إلى أن يُفنِي اللهُ تعالى الأرض ومن عليها بقيام الساعة، ففي إفراد الْمُخَاطَب ما يفيد التعميم، بأنه خطاب لكل أحد من الناس بعينه، فيخاطبه رَبُّهُ تبارك وتعالى بذاته، فإن الرؤية حاصلة لكل بصير بنفسه. وهذه دقة في الخطاب والتوجيه، وكذلك في صيغة البيان، وقوة أثره.

وورد الخطاب مفرداً ﴿ أَلَمۡ تَرَ ﴾ وإن كان موجهاً للنبي صلى الله عليه وسلم، لتعظيم شأنه وشأن ما يشاهدونه، ولكن سياقه يفيد العموم، دون تحديد وتعيين مُخَاطَباً بعينه، ليشمل جميع عباده من غير تخصيص. لأن في إفراده ما يفيد التعميم، بأنه لكل أحد من الناس، وإن خاطب سبحانه وتعالى عباده بذاته، فهو ليقيم عليهم الحجة بهذا المثل المضروب منه عَزَّ وجل، وهذه دقة بيانية في الخطاب، وفيما تضمنه من مقاصد التوجيه، مع ما فيه من البلاغة البيانية، وقوة صياغته، وأثره على النفس البشرية. فهو سؤال يشد الانتباه، ويوقظ الذهن، ويستدعي التفكير، ويستثير التأمل، وإثارة الترقب والمتابعة لعظيم ما بعده من التوجيه والبيان الرباني الكريم. وتأتي جملة ﴿ أَلَمۡ تَرَ ﴾ بمعنى ألم يلفت انتباهك هذه المشاهد العظيمة للكون أيها الإنسان. وكذلك هو سؤال تقريري، لخبر من الله تبارك وتعالى، يُقرر فيه واقع ما يشاهده المخاطب من آيات الله تعالى العظيمة الدالة على الإحياء بعد الإماتة.

وفي هذا من الفوائد: التعجب من الحال والأمر الذي يحمل الإعراض عن الحق الذي يشاهد العباد دليله، ويتعايشون معه، والذي يكشف للعباد ما غاب عن حالهم، بما يوجب ويُحقق لهم استبصار وفهم الحق بأصوله. فتفيد ﴿ أَلَمۡ تَرَ ﴾ أعطت التعجب من حال من لم يتدبر ويتفكر، ويستدل بالمخلوق على الخالق، كما أظهرت قوة المدبر عَزَّ في علاه من خلال الحركة والتغيير. وهو أسلوب توقف وتأمل، يستثير ويستدعي الذهن للتأمل والتفكر فيما يجب أن يتفكر فيه، وفي دلالاته المفضية إلى توحيد الله عَزَّ وجل، ليستعيد به الإنسان صحيح وصواب الرؤيا في الأمر. فيقول الله تعالى عنهم، عجباً من هؤلاء الذين لا يتدبرون ما يرون من حركة الخلق.

والبيان بقوله تعالى ﴿ أَلَمۡ تَرَ ﴾ هو سؤال استفهام، لكنه تقريري، بسبب ما يدركه المخاطبون بعقولهم التي وهبها الله تعالى لهم. وهو سؤال يشد الذهن والانتباه والحس إلى المشاهدة في الكون لتدبير الله تعالى الموضحة والمبينة لحقيقة ما يشاهدونه من الحجج التي لا يمكن أن يعارضها عاقل، وبالتالي أعطى وأفاد

السؤال دلالة التقرير، ولكنه بصيغة الاستفهام عَمَّا هو مشاهد بالعين، ومحسوس بكافة الحواس، فَيُلْجِئُهُ إلى الإقرار بالحقيقة والبرهان والدليل المضروب له بالمثل.

وقد أثبتت الآية الكريمة وقررت بأن نزول المطر من الله تعالى، فهو الذي ينزل المطر من السماء، بما يثبت ويبين أن الله تعالى هو الخالق والرازق، وأنه هو الذي يجب أن يُعْبَد وليس غيره. كما أن في الآية لفت الانتباه إلى العلو، بتعيين مكان النزول بأنه من السماء ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ وفي هذا البيان شد الانتباه إلى الارتفاع، وإلى السحاب الذي يتحرك في ذلك العلو العظيم، ليتدبر الْمُخَاطَب مقدار ارتفاع السحاب وعلوه في السماء، وسيره ورحيله وتنقله من مكان إلى مكان، فلا يستطيع أحد من خلقه أن يتحكم في قدره ومقداره، ولا أن يمنعه أحد عن أحد، بل يمتد بالتفكير والتفكر إلى مقدار قلته وكثرته؛ فينزله بالقدر الذي يحتاجه العباد، وتستوعبه الأرض، فلا إجحاف فيه لتموت الأرض، ولا غزارة ليهلك الخلق به. فمن الذي قدر هذه المقاييس؟ فأنزله بمقدار ما تستوعبه الأرض، ثم يسوقه من بلد إلى بلد، ومن أرض إلى أرض، وينزل المطر على هيئة قطرات، لتجري به أودية وشعاب كالأنهر؛ أو أشد جريان منها، حتى جاء تسميته على حقيقته بالماء ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ ومن بديع البيان أن نسب الله تعالى إنزال المطر إليه ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ ﴾ فكلمة ﴿ أَنزَلَ ﴾ تُنبه الْمُخَاطَب أن الذي أنزل هذا المطر هو الله تعالى، بقدرته ومشيئته، ولينتفي بهذا الحصر للإنزال جميع المعتقدات الفاسدة في نزول المطر.

ثم يتدرج البيان إلى عملية حفظ الماء، وتدفقه ﴿ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ فأدخل هذا الماء الذي أنزله سبحانه وتعالى من السماء أدخله في الأرض ﴿ فَسَلَكَهُۥ ﴾ جعله سالكاً بدخوله في الأرض. فمن عظيم تدبيره عَزَّ في علاه أن سلك في الأرض مسالكاً من المداخل التي تدخل المياه منها للأرض، أي: فَمن دَبَّر هذا التدبير؟ هل يستطيع أحدٌ غير الله تعالى أن يدبر ذلك؟ وفي هذا إبطال لكل من يدعي الشريك والمثيل لله تعالى. فلا يستطيع أحد من الخلق أن يضع في الأرض هذه المسالك التي يغور معها الماء إلى باطن الأرض، فيرتفع به منسوب المياه في جوف الأرض. فهو بيان يقود للاعتراف للخالق بما خلق، والإيمان به رباً وخالقاً ومعبوداً، لا إله إلا هو سبحانه وتعالى.

ومن دقائق الألفاظ وغزارتها، ودقة إعجازه هو اختيار كلمة ﴿ فَسَلَكَهُۥ ﴾ التي تعني الإدخال والتهيئة، فأدخل وهيأ في الأرض طرقاً للماء. فأصبح ماء المطر النازل على الأرض بهذه المسالك ﴿ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ يخرج من الأرض على هيئة ماء يتدفق منها على سطحها، وهي العيون من الماء التي تتدفق. والينبوع هو عين

الماء، والجمع: ينابيع، وإنما يُقال للعين ينبوع إذا كانت غزيرة، من شأنها النبع من غير انقطاع[١] وقد ورد ذلك بصيغة الجمع ﴿ يَنَـٰبِيعَ ﴾ بما يفيد الكثرة والتعدد التي يشاهدها الناس.

ثم يتدرج السياق إلى بيان ما يحصل بهذا التقدير وهذا الإنعام من الزروع ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا ﴾ ثم بهذا الماء الذي أنزله الله تعالى من السماء يخرج به زرعاً. والمتأمل في هذا الزرع يجده أنواعاً وأشكالاً وأحجاماً شتا ﴿ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ﴾ مختلف في ألوانه، فهناك إبداع عظيم في اختلاف ألوان تلك الزروع، بل حتى في تعدد درجة اللون الواحد، وإعطاء كل نوع ما يناسبه من الألوان، ومن الدرجة المناسبة له، فلا تجد لوناً لا يتناسب مع شكل وحجم تلك النباتات، بل إن ألوانها في تناسق بديع ودقيق، تسر الناظرين إليها. فجميع ذلك آيات وحجج وبرهين ودلائل على أن الله تعالى رب كل شيء ومالكه وأنه على كل شيء قدير، وأن ما وعد به من وعود عين الحقيقة. سواء ما كان خاصاً بالبعث والحساب والجزاء، أو ما كان من البشارة للمؤمنين، أو الوعيد للكافرين بالعذاب المهين.

ثم يبلغ به النمو والارتفاع ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ أي: يرتفع ويعلو ويقوى، كما أن في دلالة ﴿ يَهِيجُ ﴾ ما يفيد السرعة والقوة في النمو. ولذلك يُقال: سير هجاج: أي شديد[٢] كما يفيد السرعة في التحول إلى الاصفرار، حيث يتدرج البيان في لفت الانتباه إلى ما يصيب هذه الزروع البهيجة من الذبول والانكسار والتفتت والتحطم ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ﴾ أي: قد ذهب اخضراره وبهجته ونظارته، وتحول إلى اللون الأصفر، بما يدل على ذبوله وضعفه ونهاية حياته. وفي هذا آية عظيمة، ودلالة على كمال قدرة الله تعالى، وأنه لا يعجزه شيء، وأن الغيب حق لا ريب فيه، وأن وعده حق واقع كما أخبر به سبحانه وتعالى. وكذلك هي حياة الإنسان مشابهة لحياة تلك الزروع.

ثم يتدرج البيان في لفت الانتباه إلى حال تلك الزروع بعد اخضرارها ورونقها وشموخها فإذا بها تذبل وتصفر ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا ﴾ ثم يبلغ من يبلغ من شدة ما يصيبه من اليبس إلى حطام متفتت ومتكسر، فكما جعله الله تعالى زاهياً مخضراً بقدرته فإنه جعله حطاماً بعد اصفراره، وقد نسب سبحانه وتعالى الجعل له ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ ﴾ فهو الذي جعله ﴿ حُطَـٰمًا ﴾ وبمثل ذلك يجعل

(١) الشوكاني، فتح القدير (٣/٢٥٧)

(٢) ابن منظور، لسان العرب (٢/٣٨٧)

الإنسان بعد خلقه له، وارتقائه في النمو والقوة، ثم يجعله ضعيفاً، ثم يتوفاه سبحانه وتعالى بقدرته، فلا حياة له، كمثل تلك الزروع. ثم يحيه كما يحي الأرض بالزروع بعد موتها.

ثم يذكر تبارك وتعالى أن فيما ساقه عبرة لأصحاب العقول السليمة الصحيحة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فيقرر بذلك تبارك وتعالى أن فيما ذكره من بيان لعبرة لأصحاب العقول الصحيحة. وقد حصر سبحانه وتعالى جانب التذكر المفضي للاعتبار والعمل بطاعة الله تعالى في أولي الألباب، فيقول عَزَّ وجل ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فالذي يتذكر، فيعمل بما علم هم فقط ﴿لِأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أصحاب العقول الصافية الصحيحة، الذين إذا أدركوا الحق عملوا به، ولزموه، وتركوا الباطل وابتعدوا عنه، وأبغضوه. مما يعطي دلالة بأن كل منغمس في الشهوات والشبهات فإنه ليس من أولي الألباب، فلو كان لبيباً لما ترك لشهواته وشبهاته أن تلعب به في المترديات. كما يفيد ذلك أن كل متمسك بأهداب الدين وفق شريعة الله تعالى هو شخص لبيب، إذ أدرك الحق فاتبعه، وعض عليه بالنواجذ. اللهم اجعلنا من أولي الألباب الذين يتذكرون بالعلم والعمل وفق ما أمرت وشرعت، بمنك وفضلك يا كريم.

ثم يبين الله تعالى عظيم إرادته وسلطانه وامتنانه على من يريد أن يهديه فيوفقه بانشراح صدره للإسلام، فيصبح على نور من ربه، مقارنة بمن قست قلوبهم من الذين أبوا الاستسلام لله تعالى والانقياد له، فتعالوا بالكفر، فأورد البيان لذلك بأسلوب السؤال الإنكاري لنفي المساواة بينهم، والنفي من أن يكون حالهما سواء عند الله تعالى. فقال عَزَّ وجل ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فهل يستوي من وسَّع الله تعالى صدره وشرحه لقبول الإسلام، فجعله مستعداً لاستيعاب وقبول الحق بهذا الانشراح له، والذي مكنه ربه منه، فأصبح ﴿عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ على هداية من نور الإيمان والإسلام، فيستضيء به سبيل الحق، ويسير من خلال نوره المبين. فهل هذا كمن كان قلبه غليظاً قاسياً. وحتماً ستكون الإجابة هي: لا يستويان. إذاً فما الذي جعلك تترك الحق الواضح، وتذهب للباطل الظاهر بطلانه أمام نور هَدي الله سبحانه وتعالى.

ومن روائع البيان أن الآية الكريمة أوردت السؤال الإنكاري في المساواة بين الذي انشرح صدره للإسلام ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ ولم تذكر من لم ينشرح صدره للإسلام. فتم ترك جوابه، وهو: كمن لم يشرح الله صدره للإسلام. على اعتبار أن الكلام دال عليه. قال الزجاج رحمه الله تعالى: جوابه متروك، لأن الكلام دال عليه. تقديره: أفمن شرح الله صدره فاهتدى كمن طُبِعَ على قلبه فلم يهتد؟ ويدل على

هذ قوله تعالى ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم ﴾[١] ولعل في هذا الترك هو الاستغناء بما دل عليه غيره، لما في ذلك من بلاغة البيان بترك زوائد الكلام.

ثم يتوعد الله تعالى أولئك الذين امتنعوا عن الاستجابة لنور الهدى الواضح، فقال عزَّ وجل ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ فالويل والهلاك والخزي لمن اتصفت قلوبهم بالقسوة من ذكر الله تعالى وهديه وشرعه، فأصبحت لا تستجيب لنور الله تعالى، فتتمَّع عنه تكبراً وتجبراً نتيجة قسوة قلوبهم ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ فهؤلاء الذين قست قلوبهم من ذكر الله تعالى ﴿ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ أي: في ظلمة الكفر البينة الواضحة. فلقسوة قلوبهم أصبحوا في ظلمة الكفر، فهم يتيهون فيه توهاناً بائناً وواضحاً وظاهراً ضلاله، فأصبحوا فاقدين لمعرفة الوجهة الصحيحة، والاتجاه الذي يتبعونه. بما يفيد أن قسوة القلب تجعل صاحبه يتحجر كالحجارة، ويتعمد البقاء فيما هو عليه من الضلال، بالرغم من وضوح الحق، ووضوح الضلال الذي هو فيه. ولكن قسوة القلب أخذته للهلاك.

مما يبين ويفيد أن من طَوَّع نفسه للخير وابتغاء الهدى، فإن الله سبحانه وتعالى يمده بقوته وتوفيقه وهدايته، فيشرح صدره للإسلام، بفتح قلبه وتوسعته للتوحيد والإيمان، وحب طاعة الرحمن سبحانه وتعالى، وبُغض معصيته، ومعنى شرح الصدر: بسطه بما يقذفه الله تعالى فيه من الهداية، ومحبتها والأنس بها ولها.

ومن دقائق البيان وقوة تأثيره وبلاغة محتواه أنه ورد على هيئة سؤال، يستثير الذهن للتفكر والتأمل للحقائق. وقد أفادت دلالة انشراح الصدر ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ ﴾ أن الصدر هو موطن السعادة بالانشراح، وموطن الألم والضيق بانحباسه. وأن مشاعر السعادة، ومشاعر اليأس والضيق موطنها الصدر. كما أفادت أن الصدر هو موطن القبول والرفض، وهو المتحكم في بقية المشاعر، وأن التصرف البشري هو نتيجة هذا الصدر. والصدر هو الجوف العلوي من الإنسان، والذي جوفته الضلوع بقدرة الله العزيز الحكيم. والذي حوى القلب الذي هو المركز الفاعل له، ولذلك فإن الانشراح والضيق والحرج والخفقان والاكتئاب، والمشاعر النفسية جميعها في هذا الموطن العظيم من الإنسان، والقلب هو مركز التحكم، وهي المضغة التي قال عليه الصلاة والسلام عنها (ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صَلَحَت صَلَحَ الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)[٢]

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٢/٧)

(٢) البخاري، الجامع الصحيح (٣٤/١) برقم (٥٢)

وقد أظهر وبين سبحانه وتعالى أن انشراح الصدر منه عَزَّ وجل، حيث أسنده له تبارك وتعالى ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ﴾ فالله تعالى هو الذي يشرح الصدر، ويُخرج صاحبه من الضيق إلى الفسحة، ومن الشقاء إلى السعادة، مما يستوجب على العبد طاعة ربه، والاستجابة له عَزَّ وجل، ولرسوله صلى الله عليه وسلم. فمن يُقْبِل على الحق، يشرح الله صدره للإسلام، فيعينه، مما يبين أن العون هو من الله تعالى، وأن مهمة العبد الإقبال على الطاعة، وأن السداد والتسديد والعون هو من رب العالمين.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن دينه بأنه النور الساطع، فمن شرح الله تعالى صدره للإسلام ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ فإن هذا العبد الذي شرح الله تعالى صدره قد أصبح على نور واضح من ربه تبارك وتعالى، يوضح ويبين له الطريق، والمسلك المستقيم الذي يصل به إلى الفوز في الدنيا والآخرة. وقد نسب سبحانه وتعالى النور له عَزَّ وجل ﴿عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ ليشمل نور كتاب الله تعالى، ونور سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ونور العبادات، ونور بيان الحق والهدى، ونور اليقين. وبالتالي فهو أعظم نور وأعظم سعادة وهداية، وأجلها. فليست الهداية إلا في نوره الذي هو شرعه تبارك وتعالى، وكتابه ودينه الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأن نور الله تعالى مُبدد لظلام الكفر والجهل، بما يفيد أن كل مخالفة لمنهج الله تعالى فهي ظلمة، وجهالة تقود إلى الانحراف وضيق الصدر.

ثم ذكر سبحانه وتعالى في مقابلة الذين انشرحت صدورهم الذين ضاقت قلوبهم، وهم القاسية قلوبهم، وذلك لإظهار قوة التباين بينهما ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فالهلاك والويل بشدة العذاب لمن قست قلوبهم من ذكر الله تعالى. فقابل البيان الكريم الصدور المنشرحة بنور الله تعالى بما يضادها من القلوب القاسية. بل من دقة البيان أن الانشراح جعله وعَيَّنَه في الصدر، بينما القسوة عَيَّنَها وقصرها على القلب. فمن فوائد ودلالات ذلك أن الصدر هو السِّعَة التي تختلج فيها كل مشاعر الإنسان، والتي منطلقها من القلب، ليفيد تعميم الانشراح، وسعته، وتغطيته لجميع المشاعر. بينما حصر القسوة في القلوب، لتعطي دلالة فساد المركز برمته الذي مكانه الصدر. فليس عنده شيء من الانشراح، فمشاعره كلها غموم وهموم، وبالتالي مسلكه قائم على الكفر الذي ينعكس على العقل والأداء، ولذلك يُشغل غمومه وهمومه بالمسكرات والملاهي والفساد، لينشغل القلب عما هو فيه. بينما المؤمن مطمئن القلب بذكر الله تعالى.

كما أن منبع ومنطلق القسوة وارد من القلب ﴿لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾ فأصبح القلب غليظاً متحجراً لا يقبل ذكر الله تعالى، ولا يُقبِل عليه، كما قال تعالى عن أنواع قسوة القلوب في سورة البقرة ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةًۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُۚ وَإِنَّ

مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ فهناك قلوب أشد قسوة من الجارة. بل في الحجارة ما يتفجر منه الماء، ومنها ما يتشقق ليخرج منه الماء، ومنها ما يهبط من خشية الله تعالى، هذا وهي حجارة صماء. مما يبين ويوضح معادن القلوب، وأهمية الانتباه لها.

ثم يأتي الوعيد الشديد ﴿ فَوَيۡلٌ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ﴾ فالهلاك لمن قست قلوبهم من ذكر ربهم. وهو تهديد ووعيد لمن قست قلوبهم عن ذكر الله تعالى. ويشمل ذكر الله تعالى جميع ما يُذكِّر وينبه العبد لشريعة الله تعالى، وإلى وجوب طاعة الله عَزَّ وجل، وإلى حججه وبراهينه وأدلته. فيجد في قلبه امتعاض من أن يستمع إلى مَن يذكره بها، ولذلك لا يحب سماع القرآن ولا أحاديث وأقوال الرسول صلى الله عليه وسلم. ومن دقائق البيان إظهار أولئك القاسية قلوبهم باسم الإشارة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ ليفيد الإظهار والإبراز لما هم فيه من الضلال الواضح ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾ ظاهر لهم الضلال ولغيرهم بأنهم في ضلال بائن أمام نور هُدى الله تعالى، الذي يكشف الباطل ويعريه، بحيث لا يجهله أحد من الناس.

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

بعد بيان هدى الله سبحانه وتعالى ونوره العظيم، ينتقل البيان إلى تخصيص القرآن بكمال المدح والثناء، بما يفيد أن القرآن نور لمن أخذ به، فهو نور له في الدنيا، ونور له إلى طريق الجنة. فهو أحسن الحديث على الإطلاق. فقال تعالى ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴾ إن الله تعالى هو الذي أنزل القرآن العظيم، الذي هو أحسن الحديث على الاطلاق، لما فيه من الهداية والدلالة على الخير في الدنيا والآخرة، وعلى سعادة الدارين. فبدأ البيان الكريم

بتعيين مصدر نزول القرآن الكريم بأنه منه عَزَّ وجل ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ فبدأ بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ لإفادة الحصر بأنه منه ليس لأحد فيه شيء، ولإفادة التبجيل والتفخيم والتعظيم ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ وقد أبانه وأظهره سبحانه وتعالى بأنه مُنَزَّل، بما يفيد أن مصدره العلو والارتفاع، فأنزله الله سبحانه وتعالى من عنده بواسطة جبريل على رسوله الكريم محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم وصفه بأكمل الأوصاف الإجمالية ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ فهو أحسن حديث يمكن أن يسمعه البشر، فليس هناك ما هو أحسن من مضمونه، وليس بعده أحسن منه إطلاقاً، فقد جمع الْحُسن في كل شيء، من حيث حقيقته، وصدق محتواه، ونظمه وبيانه، وآدابه وأخلاقه، ومعجزاته، ودقة أسلوبه وعظيم بلاغته، وما احتواه من العبر والمواعظ والتشريع والأحكام، وطرائق الاستدلال، والإقناع، والتنبيه، وإثارة العقل، وتصحيح الفهم والتصور الصائب، وعجائب الكون وعموم المخلوقات، وتدبيرها، والْحِكَم والأحكام التي تستثير النفوس للحق والخير، وتنهض بالعقول للتَّعَقُّل والتَّبَصُّر. فمن أراد أحسن ما يُخْبَر به من الحق فعليه بما تضمنه القرآن الكريم. فإن الْحُسن والكمال يعود إلى القرآن العظيم. ومن جميل بناء النص العظيم أن أورد سبحانه وتعالى تعيين وتخصيص الحسن بالحديث على جميع مضمون القرآن.

ثم أفرد سبحانه وتعالى القرآن الكريم بأنه ﴿كِتَٰبٗا﴾ ليفيد أنه مفرد من جنس الكتب، إلا أنه لا مثيل له. فإفراده باسم ﴿كِتَٰبٗا﴾ يعني إذا قيل: الكتاب. فلا يعني إلا هو القرآن لا غيره، لعظمته وجلالته. وأفادت دلالة ﴿كِتَٰبٗا﴾ أنه مكتوب، فهو مكتوب في اللوح المحفوظ، ومكتوب في المصاحف، ودل ﴿كِتَٰبٗا﴾ على أنه المنفرد من بين جنسه بهذه المواصفات العظيمة ﴿كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ فقد انفرد بما وصفه الله تعالى به الوصيف البليغ، أولاً: بأنه ﴿كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾ وثانياً: أنه ﴿مَّثَانِيَ﴾ وثالثاً: أنه ﴿تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ على ما سيأتي من الشرح والبيان.

فأول أوصاف مضمونه أنه: ﴿كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾ أي: يشبه بعضه بعضاً في قوته وحسنه، وصحة معانيه، وفي أسلوبه، وغاياته وأهدافه، وطرائق وعظه وقصصه، وأحكامه وحِكَمِه، ويصدق بعضه بعضا، ويكمل بعضه بعضاً، وخلوه من التناقض، والاختلاف. وأما الوصف الثاني: فإنه ﴿مَّثَانِيَ﴾ بما يفيد أنه يُرَدُّ بعضه

إلى بعض، كما يفيد أنه يأتي بالمعنى وما يقابله، كالجنة والنار، والمؤمن والكافر. كما يفيد التكرار، ولكن تكراره إعجاز عظيم، إذ لا يَمَل منه السامع له، والسبب أن كل تكرار فيه فإنه يحمل دقائق من البيان، فيستوفي به ما سبق، وما لحق. قال القرطبي رحمه الله تعالى: تُثَنَّى فيه القصص، وتتكرر فيه المواعظ والأحكام، وتثنى فيه التلاوة، فلا يُمَل[1] فإن سامعه وقارئه لا يسأم منه ولا يستثقله أبداً، بل تزداد حلاوته، وتتشنف الآذان لسماعه، وتشتاق القلوب لتلاوته. وقال الضحاك رحمه الله تعالى: ترديد القول ليفهموا عن ربهم عَزَّ وجل. وقال الحسن رحمه الله تعالى: تكون السورة فيها آية، وفي السورة الأحرى آية تشبهها. وعن سفيان بن عيينه رحمه الله تعالى: أن سياقات القرآن تارة تكون في معنى واحد، فهذا من المتشابه، وتارة تكون بذكر الشيء وضده، كذكر المؤمنين ثم الكافرين، وكصفة الجنة ثم صفة النار، وما أشبه هذا، فهذا من المثاني[2] فاستوعبت دلالة كلمة ﴿مَّثَانِىَ﴾ جميع أوجه التكرار والإعادة، فما يكون فيه من تكرار فإنه إما للتأكيد، أو لبيان وجه آخر يتناسب مع موضوعه، أو إظهار تفاوت المتكرر. فإن الآية الكريمة أو القصة قد تتكرر ولكن تحمل شيئاً من الاختلاف المناسب للسياق.

ثم ينتقل البيان من الله سبحانه وتعالى إلى الوصف الثالث: الذي يكشف عن أثر هذا الكتاب العظيم على أهل الخشية، إذ تنتابهم حالتان: الحالة الأولى: هي أنه ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ تتحرك جلودهم اضطراباً، فتأخذهم القشعريرة تعظيماً له ولما فيه من قوة الوعظ، والوعد والوعيد التي تستثير قلب الإنسان، فيتفاعل معها، حتى يبلغ التفاعل جلد الذين يخشون وعيد ربهم، مهابة وإجلالاً ووجلاً، ورغبة في الحصول على ما عند ربهم من النعيم المقيم، ودفع ما عنده من العذاب الأليم. مما يبين الأثر التفاعلي بين الخشية وبين التأثر بالقرآن العظيم، حتى يبلغ إيقاع أثرها على جلد السامع أو التالي للقرآن الكريم. والحالة الثانية: هي ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ﴾ ثم تنعطف جلودهم وكذلك قلوبهم بالسكينة والطمأنينة، وعلى الطاعة والامتثال لما سمعوا من آيات القرآن الكريم. وهذا التفاعل يفيد انتفاء حصول الانقباض من سماع القرآن وتلاوته، وبما يفيد الانشراح والقبول والإقبال ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: إلى ما ذكره الله تعالى في كتابه، أي: إلى العمل بكتابه سبحانه وتعالى، ليتحقق به مزيد الطاعة لله عَزَّ وجل. مما يفيد زوال القشعريرة، ليحل محلها الطواعية إلى درجة ليونة الجلود وهدوئها، مع تفاعل القلب الذي هو مركز المشاعر، ولب التأثر والتأثير ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ مما يبين ويكشف لكل أحد أن عليه المداومة على تلاوة كتاب الله تعالى، والاستماع له، فإنه

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٥/١٦٢)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٥٥)

يهذب القلوب، ويعطفها على الطاعة، ويملأ جوف الصدور بالسكينة والطمأنينة. فإن القرآن الكريم خير علاج لجميع أمراض القلوب والأبدان. والمصحح للسلوك، والمانع لها مما يُوجب سخط الله تعالى.

ومن دقائق البيان أنه لَمَّا أن القشعريرة خاصة بالجلود تم إفرادها دون القلب بالقشعريرة ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ فلم يذكر سبحانه وتعالى القلب هنا. بينما جمع بين الجلود والقلوب فيما يخص الليونة ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ ﴾ لأنها من طبيعة كينونة القلوب والجلود معاً، فجمعها سبحانه وتعالى معاً لتوافقها في الليونة عند حدوث اللين عليها، وظهور أثره. وهذا من دقائق السياق، وإعجازه البياني في وصف الأمر بأدق المعاني والدلالات. فإنه كتاب الله تعالى الكريم، وكلامه العظيم، اذي هو رحمة للمؤمنين.

ثم يعلن الله تعالى لعباده بأن هذا القرآن الكريم العظيم هو هدايته سبحانه وتعالى لمن أراد أن يهتدي إلى الحق ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ فبدأ البيان باسم الإشارة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ ليفيد التفخيم والتعظيم لكتابه القرآن العظيم، فذلك الكتاب الموصوف بتلك الصفات ﴿ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ فذلك القرآن هو هداية الله تعالى لعباده ﴿ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ فيهدي ويوفق بهذا القرآن العظيم من يشاء من عباده، وهم الذين أقبلوا على الحق. وبما يفيد أن كل مهتد هو بفضل الله تعالى عليه، ولو شاء لما وفقه لهداه. وأن كل من أقبل على الله تعالى هداه ووفقه. وبما يفيد كذلك أن ذلك المشار إلى تأثيره وهو القرآن العظيم وأنه هداية من الله تعالى لجميع عباد، فيهدي به من يشاء إلى الصراط والطريق المستقيم. مما يتوجب على العباد الإقبال على الله تعالى بالإيمان والطاعة حتى يحظوا بهداية ربهم وتوفيه لهم.

وأما من لا يُقبِل على هداية الله تعالى ولا يقبل بها فهو الضال ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ ﴾ ومن يُبعده الله تعالى عن كتابه لطغيانه وتمرده، كعقوبة له ﴿ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ فليس له سبيل للهدى أبداً. مما يفيد أن الله تعالى قد يعاقب المكابر والطاغية بأن يختم على قلبه من أن يستفيد من هذا القرآن، وإذا امتنع عنه ذلك فليس له من يهديه أبداً. مما يدل على أن القرآن كتاب هداية لمن تواضع وسمعه، وأخذ بنوره الظاهر المبين، الذي لا شك ولا ريب فيه. ومن عاداه فقد وقع في الضلالة البينة الظاهرة، وإذا عاقبه الله تعالى بما هو عليه، فلن يستطيع أحد من الخلق أن يهديه أبداً.

ثم ينتقل البيان العظيم من الله تعالى الكريم إلى المزيد من المقارنة المبينة والمفصحة عن انتفاء الاستواء بين من يتوقى النار عن وجهه بطاعة ربه، وبين من قست قلوبهم عن ذلك اليوم العظيم الذي هو يوم القيامة، فيقول تبارك وتعالى ﴿ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ

تَكْسِبُونَ ﴾ أفمن يتوقى النار بالطاعة، كمن لا يأبه بها، فيتمادى في كفره وتمرده، فإنه سَيُلقى في النار مغلولاً مدحورا، وبالتالي هل هذا كمن ينعم بالجنة. فإنهما عملان مختلفان لنتيجتان مختلفتان، فأوجب جزاءان متضادان، فكل جزاء يلائم صاحبه فيما كان منه في الدنيا.

وورد البيان بصيغة الاستفهام الذي يقرر فيه نفي الاستواء والمماثلة في الجزاء، كما هو الانتفاء في توقي العبد من النار، وبين المكابرة في ذلك بالتمادي في الطغيان، وبين المبادرة في الطاعة، حقيقتان لا تستويان، ويترتب عليهما جزاءان مختلفان ومتضادان. فهو نفي مع إنكار لمن يعتقد استواء الفريقين: فريق الطاعة، وفريق الكفر. أفمن شأنه اتقاء النار كمن شأنه عدم المبالة والاكتراث، وأورد سبحانه وتعالى بيان التوقي هنا بالوجه ﴿ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ باعتبار أن الوجه أشرف وأرفع أعضاء مكونات الجسم، وهو أدق أماكن الجسم في التحسس، والذي إذا هلك بارت بقية أعضاء الجسم، وهذا من دقائق التوصيف في التوقي. كما أورد البيان اجتناب النار بدلالة ﴿يَتَّقِى ﴾ التي تفيد بذل الجهد في أن يجعل بينه وبين النار وقاية، وحاجزاً، بحيث يصون وجهه عن سوء العذاب يوم القيامة. ووقاية الوجه يحتاج إلى اليدين التي هي أداة الكسب، فاستغنى عنها البيان لِتَعُم وتشمل جميع أداة الكسب كاللسان بالنطق بالكلام، والقدمين بالمشي في الطاعة، والقلب بالاعتقاد والإرادة، واليدين بالأخذ والعطاء وجميع حركاتها، وغير ذلك من أعضاء الجسم.

وأفاد قوله تعالى ﴿ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ شدته وقوته التي تُهلك من تم تعذيبه، وفي ذلك إظهار المهانة بوصفه بهذا الوصف ﴿ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ وقد حدد تبارك وتعالى موعده بأنه ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ بما يؤكد البعث والنشور والحساب والجزاء لكل مكذب وناكر لذلك اليوم.

ومن دقائق السياق أن ورد البيان الكريم بما يفيد التقرير، ويفيد كذلك استنكار التسوية بين الفريقين ﴿ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ تقرير عدم التسوية، وفي نفس الوقت استنكار من أن يكون الجزاء واحد للفريقين. وكذلك من دقائق البيان أن ورد حال من يتقي بوجهه سوء العذاب، ولم يأتي نظيره الذي لم يتق بوجهه سوء العذاب، وذلك لظهور دلالته بإظهار عذابه ﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ فأغنى السياق عن الإتيان به. وهذه براعة بلاغية، تفيد وتدل على دقة القرآن الكريم في الإيجاز، والاستغناء بما يُغني غيره عنه.

ثم انتقل البيان الكريم إلى جزاء القسيم المكذب الجاحد، دون أن يذكر البيان جزاء من اتقى بوجهه سوء العذاب على اعتبار أنه على ضد من لم يتق بوجهه سوء العذاب ﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ وكما أنه لم يذكر البيان صفة وهيئة من لم يتق بوجهه سوء العذاب، لكنه خصه بما يناله من الجزاء، حينما يُقال لهؤلاء الظالمين ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ من أعمالكم التي أوردتكم المهالك. فكانوا ظالمين بما كان منهم. وتم تسميتهم هنا بالظالمين ﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ لأنهم ظلموا أنفسهم بسوء العذاب، وظلموا الحق بما وصفوه وأنكروه وجحدوه، وبظلمهم لكتاب الله تعالى ولرسالة الرسول صلى الله عليه وسلم، فاستوفت الظالمين جميع ما كان منهم من الظلم.

ولم يذكر القائل لهم ﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ وهم الملائكة من خزنة النار. وذلك لإفادة التهويل والتعظيم بذلك الحدث، فتقولوا لهم ﴿ذُوقُواْ﴾ بدلالة الذوق الذي هو أشد وأدق حواس الإحساس عند الإنسان. ولذلك فإن أقوى عملية الإحساس هي الذوق التي هي حاسة اللسان التي تستطعم أدق المطاعم اختلافاً في المذاق ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ ذوقوا جزاء ما جمعتم وكسبتم من أعمالكم في الدنيا، وأفاد الكسب هنا التحصيل. فأنتم الذين كسبتم ما أنتم فيه من الجزاء والعذاب، فأنتم اخترتم هذا العذاب، وسعيتم في تحصيله بكفركم. فهو جزاء ما كسبتم، ولم تُظلموا بما أنتم فيه، فهو اختياركم لأنفسكم.

ومن روائع ودقائق السياق الكريم اكتفاء البيان بأحد القسيمين، أو المتضادين، وهو المؤمن الذي يبذل جهده بالطاعة ليتقي سوء العذاب ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ فأظهر هذا القسيم المؤمن حال قسيمه الكافر، الْمُضاد له من غير ذكر لما كان منه في الدنيا، مع إظهار حاله يوم القيامة، وهو قوله تعالى ﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ وفي المقابل لم يُظهر ويذكر البيان الكريم جزاء من يتقي بوجهه سواء العذاب يوم القيام، على اعتبار أنه معروف بالمقابلة والمقاسمة والمضادة. وهذه من قوة بلاغة البيان، في إظهار الدلائل بالقسيم المضاد. فكل قسيم أظهره الله تعالى بما يقابله من حال الآخر. وهذه غاية في براعة البيان وجزالته.

ثم يعظ الله تبارك وتعالى هؤلاء الصادين عن دين ربهم بما حصل لمن قبلهم الذين تماثلوا معهم في الكفر، بما يفيد التحذير والتهديد والوعيد، فقال عَزَّ وجل ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ لقد كذب أهل القرون الماضية، الذين هم قبل قومك أيها الرسول صلى الله عليه

وسلم، فقد أوردنا العذاب عليهم بغتة، بحيث لم يشعروا إلا والعذاب قد داهمهم بمجيئه إليهم. بما يفيد الإنذار والحذر من أن يحل بكم العذاب المفاجئ بغتة أيها المكذبون وأنتم لا تشعرون إلا وقد حَلَّ ووقع بكم.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بما نال أولئك المكذبين من الأمم السابقة في الدنيا وبما سيكون لهم في الآخرة، فقال تعالى ﴿ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ فإن الله تعالى أذاقهم في الدنيا ﴿ ٱلْخِزْىَ ﴾ الذي هو الهوان والإذلال بما أصابهم من العذاب. وقد أفادت جملة ﴿ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ شدة العذاب وقسوته، بما يفيد تعظيم عذاب الآخرة الذي أكده سبحانه وتعالى بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ فإن عذاب الآخرة سيكون أشد وأكبر من عذاب الدنيا ﴿ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ لو كان هؤلاء المشركون ممن يعلم ويفهم ويتعظ ويفكر، لأخذوا من حال الأمم السابقة الدروس والمواعظ. بما يفيد: ولكنهم عن العلم نافرون ولشهواتهم وكبريائهم طائعون. مما يفيد ويبين أن مدار العلم على التطبيق، فمن علم ولم يطبق كان كالجاهل بما علم، فلا قيمة ولا وزن للعلم عند من لم يستفد منه، ويتعظ به. كما يفيد ذلك أن الكبرياء يطمس القلوب عن إرادة الحق وابتغائه.

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَـٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

ثم يزداد الوعظ بالإخبار والإعلام بما في هذا القرآن الكريم من جميع الأمثال الزاخرة بما يجعل الناس يتذكرون ويتعظون، فقال تبارك وتعالى عن كتابه الكريم ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ولقد قَدَّمنَا وعرضنا في هذا القرآن الأمثال الكثيرة والمتنوعة، التي استوفت ما يبين للمشركين ولغيرهم الحق، الذي تقوم به الحجة عليهم. وأن الهدف والغاية من ذلك هو ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ لعلهم يتعظون بما فيه من الأمثال والمواعظ، فينزجروا عما هم عليه مقيمون.

ومن الفوائد أن دلالة الضرب من قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ ﴾ تفيد معنى الوصف والبيان والتمثيل بإيقاع وصف على واصف يوجد بينهم به قاسم أو قواسم مشتركة من التشابه والتماثل،

للاستدلال به على المراد بيانه وإعلانه وإعلامه. فيكون ضرب المثل هو: تشبيه معنى مجرد بصورة محسوسة مدركة، بغرض التشويق، أو التنفير، أو تقريب المعنى. والقرآن والسنة النبوية مليئة بضرب الأمثال.

ومن الفوائد أن في تعميه سبحانه وتعالى للناس ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ ﴾ ما يفيد أن من كثرة الأمثال وتنوعها في القرآن أنها تستوعب عقول وأفكار الناس جميعاً، بما يدل على الإعجاز القرآني في تنوع أمثاله لتستوعب وتستوفي التنوع البشري. ويعضد بعضها بعضاً. وقد أفادت دلالة: الضرب ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا ﴾ ودلالة الأمثال ﴿ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ عمق البيان، بتقريب ما يُراد بيانه بأقرب صورة له، لِتُمَاثِلُه وتحاكيه. فالضرب يحمل معنى الوصف والبيان والتمثيل، بإيقاع وصف على وصف، لأن بينهم قاسم أو قواسم مشتركه من التشابه والتماثل، للاستدلال به على المراد بيانه وإعلانه وإعلامه للناس بأدق التمثيل له. كما يعزز قوة ضرب الأمثال في القرآن الكريم كونه من لدن الله عَزَّ وجل ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ ﴾ فضارب المثل للناس هو الله سبحانه وتعالى، إذ أفاد ضمير المتكلم الملتصق بالضرب ﴿ ضَرَبْنَا ﴾ أن الله تعالى هو الضارب للناس الأمثال في كتابه الكريم، مما يدل على قوتها، وأنها عين الأمثال وأقواها تأثيراً، فمن لم يتعظ بها فلن يجد أقوى بياناً منها. وبالتالي فهي في أقوى صورة، وأبرع بيان، فمن لم يهتد بها، ويُذعن لها، فهو جاحد بلا ريب.

كما أن قوله تعالى ﴿ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ ما يستوفي به كمال البيان في تنوعه وكثرته بما يناسب جميع تنوع العقول. والذي لا يعارضه ولا يصد عنه إلا جاحد كافر. ومن تعزيز الله تعالى لهذه الأمثال وتأكيدها أن تقدم البيان بحرف التأكيد والتقرير المسبوق بلام القسم ﴿ وَلَقَدْ ﴾ الذي يفيد التحقيق والتوكيد لما بعده، والمسبوق بلام القسم كذلك، بما يفيد الجزم الذي لا يخالطه شك ولا ريب. فيخاطب الله تعالى عباده بالتوكيد، وقوة البيان، وهم عبيده، وهو ربهم وخالقهم، مما يدل على رحمة الله عَزَّ في علاه بعباده، ليظهر لهم ما يُوجب عليهم الاتعاظ والطاعة. فالحمد لله على فضله ورحمته، وكريم خطابه وبيانه سبحانه وتعالى.

وقد تضمنت جملة ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ما يفيد التحفيز لأن دلالة ﴿ لَّعَلَّهُمْ ﴾ إذا كانت من الله عَزَّ وجل فإنها تفيد التحفيز والاستنهاض للمخاطبين بما خاطبهم ووعظهم الله تعالى به ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي: لعلهم يتعظون، وينزجرون عما هم عليه من الكفر، فيتحفزوا وينهضوا عن كفرهم إلى الحق، فيتبعوا الرسول صلى الله عليه وسلم ويطيعونه. ولعل المخاطبون بهذا البيان من الناس أن يهتدوا بما تم ضربه لهم من الأمثال، ويتذكروا نعمة البيان الجليلة، فيصححوا أفكارهم، وينهضوا للحق، والتمسك به. ويقوموا بما فيه من الهدى والحق، ويشكروا ربهم على ما هداهم إليه بكتابه وبهدي رسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم يسترسل البيان في إظهار مزايا وقوة القرآن العظيم، فيقول جَلَّ جلاله ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ فإن كتاب الله تعالى هو ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ فصفته وتعريفه بأنه قراناً بلسان عربي، بما يؤكد به كل مانع يمنع عن تلقيه وفهمه، وليؤكد به أن مَن أعرض عنه وهو بهذه العربية المبينة الدقيقة الواضحة، فقد أعرض عن الحق الظاهر والواضح. وفي هذا عظيم الثناء على القرآن الكريم، وعلى اللغة العربية عموماً، وعلى فصاحة وبلاغة القرآن العظيم.

كما أنه أيضاً مُتصف بأنه ﴿ غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ﴾ أي: لا اختلال ولا انحراف، ولا تعارض في معانيه، ومقاصده، ودلائله، وحججه وبراهينه، ولا لبس فيه، فنفى تبارك وتعالى عن القرآن الكريم كل نقص، وعيب، ليثبت به كمال الكمال لكتابه القرآن العظيم. وبما يثبت نقيض الاعوجاج، وهو الاستقامة، ليعطي دلالة على أن هذا القرآن العظيم، قد انتفى منه الخطأ والاختلال والاختلاف، بما يدل على دقته وكمال إعجازه وصوابه وحجته وبيانه وأحكامه، وأن ليس في أحكامه ظلم ولا حيف ولا شطط، بل كمال العدل، وأن قصصه وأخباره وأمثاله ومواعظه خالية من الزيف والكذب، ليثبت بذلك أنه صِدْقٌ وحقيقة، وأن هذا الكتاب لا يدعو إلى منكرات الأخلاق ومساوئها، بل يدعو إلى مكارم الأخلاق، وتمامها وكمالها. ومن دقائق وفوائد البيان أن نفي العوج عن القرآن الكريم ورد عاماً وقاطعاً ﴿ غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ﴾ ليشمل نفي العوج عن مضمونه، وعن بيانه، وألفاظه، ودلالاته، وأحكامه وجميع مفردات تشريعه.

ثم ذكر سبحانه وتعالى الغاية والهدف من كون القرآن بذلك الكمال من تلك الأوصاف ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ لعلهم يتعظون، وينزجرون عما هم عليه من الكفر، فيتحفزوا وينهضوا عن كفرهم إلى الحق، فيتبعوا الرسول صلى الله عليه وسلم ويطيعوه. ولعل المخاطبون بهذا البيان أن يهتدوا بما في القرآن من الدلائل والحجج والبراهين والمواعظ، فيصححوا أفكارهم، وينهضوا للحق، ويتمسكوا به، ويشكروا ربهم على ما هداهم إليه بكتابه وبرسوله صلى الله عليه وسلم.

وبعد بيان الله تعالى لكثرة وتنوع ما في القرآن من الأمثال المضروبة للاتعاظ، وأنه بلسان عربي مبين، يضرب الله تعالى مثلاً في قضية الشرك، لعلهم يتعظون بها، فيقول تبارك وتعالى ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ضرب الله تعالى مثلاً توضيحياً لحقيقة الشرك، وهو ﴿ رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ ﴾ أي: بعبد مملوك لعدد من الشركاء، المتشاركون في ملكيته، وهؤلاء الشركاء ﴿ مُتَشَٰكِسُونَ ﴾ أي: متنازعون ومتخاصمون في

هذا العبد، فأصبح العبد في حيرة من أمر إرضاء الجميع عنه. وأما المثال المضاد فهو ﴿وَرَجُلًا﴾ أي: وعبداً آخر ﴿سَلَمًا﴾ سالم من الشركاء ﴿سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ لمالك واحد فقط، ليس معه شريك في مُلك هذا العبد، فهو سالم من المنازعة، فليس أمامه إلا إرضاء مالك واحد فقط، وهو سيده.

ثم يتدرج المثل المضروب إلى عملية المساواة والاستواء بين حال العبد الأول، وحال العبد الثاني: بسؤال استفهام لاستثارة الفكر الذي يَصِلُون به إلى تقرير خطأ الشرك، وصحة وصواب التوحيد، فيقول تبارك وتعالى للمشركين ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ هل يستويان في النتيجة؟ إنه استفهام يستبعد به المساواة، ويفيد الإنكار على من ساوى بينهما، ليستنتج منه العاقل استبعاد أن يكون مع الله تعالى شريك في ملكه. فلا يستوي المشرك الذي يعبد آلهة متعددة مع الله تعالى، والمؤمن الموحد الذي لا يعبد إلا الله سبحانه وتعال. فالاختلاف بينهما شاسع جداً وكبير. فهذا يتنازعه الشركاء، فإن كل شريك يطلب من هذا العبد خدمته وطاعته، مع اختلاف ما يريدون منه، وهو لا يستطيع أن يجمع بين تفاريق وتباعد مطالبهم، وشتاتها وتباينها، فإنه سيعيش حالة من التشتت والعنت والتعب، والتظلم، والعجز، بل والظلم الذي يراه منهم عليه. بينما الذي سيده واحد، لا يطالبه إلا مالكه فقط، وبما يريد، فيكون عند هذا العبد ما يكفيه من الوقت، ومن غير تشتت ذهني، ولا نصب، ولا ظلم ولا تظلم، لأن سيده يحفظه ويحافظ عليه، ويعتني به. فهو مثل في غاية البيان الذي يبين أن من عظيم الإنعام هو توحيد الله تعالى، فليس هناك شركاء يتنازعون العباد، ولكن البعض يرفض هذه النعمة، ويضيف الشريك منه افتراء على الله تعالى الواحد الأحد.

ثم يقرر سبحانه وتعالى ذلك الاختلاف، ونفي الاستواء، وتقرير نعمة التوحيد بقوله عَزَّ وجل ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فالحمد لله على إقامة الحجة وظهورها وبيانها، والحمد لله على نعمة توحيد الله جَلَّ في علاه، فإن من أَجَلّ النِّعَم التي تستحق الشكر والحمد والثناء هو توحيدهم لله تعالى، وإفراده بالعبادة، وتلقي ثمرة التوجيه منه وحده لا شريك له، وعبادته وحده، وطاعته وحده عَزَّ وجل. بل ومن بديع البيان تخصيص الحمد له عَزَّ وجل لهذه النعمة وجميع النعم ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فإن حمد العبادة مقصور على الله سبحانه وتعالى، وأنه واحد أحد، لا شريك له.

ثم يوضح ويبين تبارك وتعالى جهل الجاهلين بهذه الحقيقة العظيمة، فيقول عَزَّ وجل ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فإن المشركين لا يعلمون ذلك التفاوت، لأنهم يقلدون أتباعهم على جهل، وقناعة بهم، مع ثقتهم فيمن يتابعونهم من كبرائهم. مع ظهور الحق وجلائه ووضوحه.

ومن دقائق البيان أن وصفهم بالأكثرية ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ لأن أهل الشرك والكفر أكثرهم تابعين لغيرهم من رؤسائهم وأعيانهم، فهم لا يعلمون الحقيقة. وكذلك يُعطي النص الكريم معنى: أن أهل الشرك والكفر عموماً أكثر من المؤمنين، فالمؤمنون هم الذين يعلمون حقيقة التوحيد، ومنزلته ومكانته الرفيعة. وهم أقل عدداً من الكفرة بجميع أنواع كفرهم.

ثم يتجه الخطاب إلى بيان نتيجة الدنيا وحتمية مفارقة الجميع لها بالموت، فبدأ تقرير الوفاة بالرسول صلى الله عليه وسلم ثم التعميم بجميع البشرية التي أرسلناك إليهم. فيقول تبارك وتعالى ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ فإنك أيها الرسول ميت كما سيموت جميع المخاطبين. فحتمية مفارقة الدنيا كائنة لا محالة بأمر الله تعالى وقضائه، بما يفيد على الجميع الاعتبار بفناء الإنسان، وفناء الدنيا، فالزوال يُلزم العاقل أن يتعقل، وأن يأخذ الحياة الدنيا بما يجعله يستثمرها ويغتنمها للحياة الاخرة. وقد بدأ تحقيق الموت وتأكيده بالرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ ﴾ لإفادة أن أعز الناس وأكرمهم عند الله تعالى سيموت مثل غيره. فاتعظوا بذلك.

ثم يقرر أن بعد الموت بعث، وحياة، وحساب، وخصومة وجزاء، فيقول تبارك وتعالى ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ ثم إنكم أيها الناس بعد موتكم تُبعثون يوم القيامة، وتحصل بينكم عند ربكم المخاصمة، فيخاصم الرسل أقوامهم، ويخاصم رسول الله صلى الله عليه وسلم المكذبين، ويحتج عليهم، بأنه بلغهم الرسالة، وأنذرهم، ويخاصم المظلوم الظالم. فهي موعظة بما سيكون قبل أن يكون، فالعاقل يحسب حساباته لذلك اليوم الموعود. مما يبين أن دين الله تعالى قائم على الحقائق، ويدعو للهداية، ويحث عليها بجميع الطرق والأساليب. وأن القرآن الكريم كتاب هداية ونور للحق بما فيه من المواعظ والأحكام والتشريع.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى
لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا
يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟
وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ
بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ
أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

ثم يخبر الله تعالى بمن هو أشد ظلماً، وهو من كَذَب على الله سبحانه وتعالى، بالافتراء وإنكار الصدق الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، فقال عَزَّ وجل ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴾ فلا أحد أظلم ممن كَذَب على الله تعالى، بافترائه على الله عَزَّ وجل ما لم يقله، وما لم يأمر به، بما يفيد التَّقَوُّل على الله جَلَّ جلاله. فزعم أن لله تعالى شريكاً في العبادة أو الملك، ومن زعم أنه له الولد، ومن زعم أن الملائكة بنات الله تعالى، أو نسب إلى الله تعالى في دينه وشريعته وعبادته وأحكامه ما لم ينزله عَزَّ وجل.

وورد البيان بصيغة الاستنكار والتكذيب والتهجين لقولهم وافترائهم ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ فهل هناك أكثر جرأة وتعدياً على الحق ممن افترى على ربه الكذب، فلا أظلم ولا أشد ممن تجرأ على مقام الله تعالى بما لم يقله، ولم يأمر به عَزَّ في علاه. وقد عَظَّم اللهُ سبحانه وتعالى جُرمهم باستنطاق العقول والأفهام بالسؤال الذي ليس له إلا جواباً واحداً فقط. وهو ليس هناك أظلم منه. فجملة ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ تعني هل هناك من هو أكثر ظلماً للحق، وللحقيقة، ولنفسه، ولتوحيد الله تعالى ولجلال ومقام الله العزيز العظيم؟

وورد الظلم وفعله بصيغة ﴿ أَظْلَمُ ﴾ التي تفيد المبالغة في ظلمهم، أي: أن كذبهم قد بلغ منتهاه من الفجور والافتراء والظلم، فإنهم أظلم الظالمين، فليس هناك أظلم ممن يكذب على ربه عَزَّ وجل، مما يفيد أن الذي يقابله من الجزاء الْمُسْتَحَق هو شدة العذاب الذي يوازي ذلك الجرم العظيم، ليعطي دلالة التحذير من الافتراء على الله تعالى بأي نوع من أنواع الافتراء، كما يعطي هذا الوعيد الشديد نفي صحة ما قيل على الله تعالى. وشدة جرم وجراءة من يكذب على الله تعالى بأحكام، أو تشريع أو عبادة ثم ينسبها إلى الله تعالى. ويدخل في ذلك البدع في الدين. فهؤلاء هم أظلم الظالمين. وبما يعني أنه ليس هناك أشد ظلماً من ظلم هؤلاء. كما يفيد قوله تعالى ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ تعدد أنواع الظلم، وهذا أشده وأقبحه. فهو اعتداء على حرمة مقامه وجلاله سبحانه وتعالى. وسواء كان الكذب في صفاته، أو في دينه، أو أن ينسب لله تعالى ما ينافي مقامه وجلاله، عَزَّ جاهه، وجَلَّ جلاله.

ففي أسلوب الآية الكريمة استثارة العقول إلى التفكر في الحقائق، وفي عواقب تكذيب الحقائق. فهل هناك أشد اعتداء في الظلم ممن اخترع على الله تعالى الكذب، أو كذب بحجج الله تعالى، وصد عنها؟ والجواب ليس هناك أعظم ظلماً من هذا الصنف من الناس. وبالتالي يكون هذا السؤال الاستنكاري تقرير للحقيقة كذلك، فيقرر به سبحانه وتعالى ظلم المفترين على الله الكذب، وكذلك المكذبين بآياته سبحانه وتعالى، فهو استنكار لمن تكون هذه حاله.

ثم عطف السياق الكريم على عظيم شأن الكذب عليه سبحانه وتعالى التكذيب بدينه الذي جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم، فقال عَزَّ وجل ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓ﴾ فامتد تطاوله وظلمه وجرأته على رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم، فكذب بها حين جاءته. ومن دقائق البيان أن سَمَّى الله تعالى جميع ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم بالصدق ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ﴾ ليشمل القرآن وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وجميع شريعة الله تعالى ودينه العظيم. وفي تسميته ﴿بِٱلصِّدۡقِ﴾ ما يبين أن جميع ما تضمنه دين الله تعالى هو صدق لا كَذِب فيه إطلاقاً، وفي ذلك تزكية لدينه عَزَّ وجل، وتزكية للمبلغ به لهم وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأفاد قوله تعالى ﴿إِذۡ جَآءَهُۥٓ﴾ أي: حين ورده ووصل إليه من غير عناء منه ولا مشقة ولا تعب، فالمجيء كان للصدق الذي هو دين الله تعالى، وموطن المجيء هو للإنسان الذي حصل منه التكذيب. فلم يُقَدِّر ولم يحترم رسالة الله تعالى إليه. فهؤلاء هم أظلم الظالمين.

ثم يخبر الله تعالى عن العقوبة بنفس أسلوب الاستفهام التقريري، والذي يقرر به عقوبتهم بأشد ما يستحقون ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ ألا يوجد في جهنم أيها المكذبون مسكن ومأوى لمن كفر وأنكر وكذب على الله تعالى وكذب بدينه القويم والواضح والظاهر صدقه. ألستم خائفين من عذاب ربكم؟ سؤال تقريري، يؤكد به سبحانه وتعالى عظيم الجزاء لكل من كفر، بأن هناك في جهنم ﴿مَثۡوٗى﴾ وهو المسكن والمأوى الذي سيأوي إليه الكفرة الفجرة، كما تدل دلالة المثوى على المكوث والإقامة الدائمة في جهنم. وبما يفيد أن مأوى الكافرين جميعاً هو الإقامة الدائمة في جهنم، المستعرة بالنار العظيمة الشديدة. فنسأل الله تعالى العافية، وأن يجعلنا من الصادقين المصدقين الذين هم أولياؤه المتقون بفضل منه وكرماً.

فلما ذكر تبارك وتعالى المتطاول بالكذب على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى دينه ينتقل البيان إلى الإخبار بجزاء ومثوبة أهل الصدق، الذين صَدَّقوا الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ فإن الذي جاء بالصدق وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكذلك الذي صَدَّق به ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ وهو كل مؤمن صَدَّق بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من ربه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ فهؤلاء قد سماهم الله تعالى بالمتقين، الذين اتصفوا بصفة التقوى، والتي تعني: مخافتهم من الله تعالى، ورغبتهم في طاعته، فاتقوا الشرك، وابتعدوا عنه، بل ابتعدوا عن كل ما يُغضب الله تعالى، وسعوا مجتهدين في طاعة ربهم عَزَّ وجل، رغبة ورهبة. رغبة في طاعته عَزَّ وجل، وما أعده للمتقين، ورهبة وخوفاً من عقابه عَزَّ وجل للعاصين.

ويشمل الصدق الذي هو محور المجيء الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسل ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ ﴾ أنه: القرآن، ولا إله إلا الله، وجميع شريعة الله تعالى. ومن دقائق البيان أن أفرد سبحانه وتعالى المصدق به ﴿ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ ليشمل كل فرد بعينه، وأولهم أبوبكر الصديق رضي الله عنه، الذي هو أول من آمن من الرجال، وخديجه من النساء رضي الله عنهم أجمعين. ثم يدخل كل فرد صَدَّق بدين الله تعالى، فامن وعمل به. فعن قتادة رحمه الله تعالى، قال: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، جاء بالقرآن، وصَدَّق به المؤمنون[١] ويستوفي المدح لكل من دعا إلى الله تعالى، وكل من صَدَّق وآمن. ذكر ابن جرير ذلك[٢] وكذلك الشوكاني رحمها الله تعالى: فقال الشوكاني: قيل: إن ذلك عام في كل من دعا إلى توحيد الله تعالى، وأرشد إلى ما شرعه لعباده، وقال الشوكاني: واختاره ابن جرير، وهو الذي اختاره من هذه الأقوال، والذي يؤيده قراءة ابن مسعود **(والذين جاءوا بالصدق وصَدَّقُوا به)**[٣] فاستوفى البيان الكريم الدلالتين في تعاضد ومن غير تضاد، فإن كان عاماً شمل المخصوص، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم، وإن كان خاصاً شمل العموم لأنه اقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم، وبمن آمن من السابقين واللاحقين. وهذا من غزارة دلالة القرآن الكريم. كما استوفت جملة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾ كمال المدح والثناء، والتزكية من الله سبحانه وتعالى لهم بخصيصة التقوى.

ثم يذكر ربنا سبحانه وتعالى ما لهؤلاء الصادقين المصدقين في الآخرة من النعيم، فقال عَزَّ وجل ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ لهؤلاء الصادقين المصدقين بالصدق الذي جاءهم من ربهم ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ ﴾ لهم كل ما يشاؤون من النعيم المقيم في الجنة، بما يدل على سعة العطاء من غير تحديد، ليفيد الاطلاق الذي لا حدود له، بل من رفعة مقامهم أن أسند إليه الأمر والمكان ﴿ عِندَ رَبِّهِمۡ ﴾ بما يدل على الحظوة العظيمة لهم في الآخرة. ثم أشار تبارك وتعالى باسم الاشارة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إلى ما تقدم ذكره وهو ما يشاؤون، ليفيد التعظيم لهذا المشار إليه الذي هو ما يشتهون، بأنه ﴿ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ الذين أحسنوا في أعمال الطاعة، فاستوفوها على مراد الله تعالى، وهو كمال التقوى، وهو أن يعبد المحسن ربه كأنه

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٠/٢٠٥)

(٢) المرجع السابق (٢٠/٢٠٦)

(٣) الشوكاني، فتح القدير (٤/٤٦٣)

يراه، فيراقبه في السر والعلانية. فلما أنهم خالفوا أهواء الشهوات والشبهات، وألزموا أنفسهم طاعة ربهم، كافأهم الله تعالى بأعظم المكافأة، وهي الجنة التي فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين. مما يستدفع النفوس للاستكثار من الطاعة، وتشوقها لهذا الجزاء العظيم، بالمبالغة في اتباع هذا الدين العظيم، والصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية. مما يبين أن الله تعالى رؤوف بالعباد، إذ يدفعهم للطاعة بأحسن الجزاء وأكمله وأعظمه.

ثم يخبر الله تعالى بالمزيد من إحسانه على المحسنين المؤمنين المصدقين الطائعين، فيقول تبارك وتعالى ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ فيمحو الله تعالى عن هؤلاء المحسنين ﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ ﴾ وذلك بتكفير ذنوبهم العظيمة من ربهم لهم ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ فالتكفير هو المحو والإزالة لأثر السوء الذي عملوه في الدنيا، وذلك بدفع الضرر المترتب على ما كان من أعمال السوء. وقد خص سبحانه وتعالى ﴿أَسْوَأَ ﴾ أعمالهم بالتكفير ومحو آثارها وسترها ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ ﴾ ليفيد أن ما هو دونه وأقل منه من الذنوب هو من باب أولى، فَمَن يسمح ويمحو عظائم الإثم فإن صغائره داخل فيه من باب أولى، فذكر الأعظم ليدخل معه الأصغر.

وقد أفادت دلالة ﴿أَسْوَأَ ﴾ المبالغة، لأنه من صيغ التفضيل، التي تعني الأعظم. وفي هذا تطمين لهم بما كان منهم من تلك الذنوب العظيمة التي كانت قبل إسلامهم، كالشرك ونحوه، بأن الله تعالى يغفرها، فالإسلام يَجُبُّ ما قبله، بأن يمحوه فلا يترتب عليه محاسبة ولا جزاء.

بل وتزداد رحمات الله تعالى عليهم، فيقول عَزَّ وجل ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ فيجازيهم على تصديقهم والتزامهم حُسن الطاعة بالأجر الذي هو ﴿بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ وهو دخولهم الجنة، فإن جزاء هو الجنة أحسن مما كانوا يعملون من أعمال الطاعة، بما يفيد المبالغة في نوع الثواب الذي لا يساوي شيئاً مع ما كان منهم من التزام الطاعة، والصبر عن المعصية. ليدل على عظيم كرم الله تعالى، بما يجازي به عباده الطائعين له، بأنه أعظم بكثير مما كان منهم من الطاعة.

ثم يخبر الله تعالى عباده عن عنايته برسوله صلى الله عليه وسلم وبكل عبد من عباده المؤمنين من كيد أعداء الدين ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ سؤال تقريري عن الحقيقة ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ أليس الله تعالى بعلمه

وقدرته وسلطانه بأنه يعتني بعبده ورسوله صلى الله عليه وسلم وبالمؤمنين، فيكفيه شر أعدائه بدفعه عنه، فيذود ويدفع عنه كل مكر وكل تخذيل، وكل سوء ومكروه، فيحرسه من أن يناله شر من أحد. بما يفيد التطمين للرسول صلى الله عليه وسلم، ويدخل في ذلك كل عبد مطيع لربه، كما تفيد كفاية الله تعالى لعبده إفساد وإبطال تخذيل لأعداء، بأن يبوء مكرهم وتخطيطهم وتنظيمهم بالفشل، فينعكس أثره عليهم. وفي هذا تهديد لهم بالدفاع عن رسوله صلى الله عليه وسلم، وعن عباده المتقين. فإن الله تعالى هو الذي يتولى كفاية عبده المؤمن. فيوفقهم ويَمُنَّ عليهم بكفايتهم من شر الأشرار.

وكلمة ﴿ أَلَيْسَ ﴾ تفيد السؤال التقريري، الذي يتقرر به علم الله تعالى السابق بمكر العاصين للمطيعين قبل أن يكون منهم ما يمكرون، فيدفعه عَزَّ وجل بما يشاء عن رسوله صلى الله عليه وسلم وعن المؤمنين. فإن الله تعالى قد عَلِمَ بمكر الأعداء، كما علم بالمؤمنين، من أنهم مطيعون، فَمَنَّ الله تعالى عليهم بالكفاية والتوفيق. وجملة ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ كما أنه سؤال تقريري، يقرر به عَزَّ وجل كفايته لعبده المؤمن، فهو كذلك سؤال استنكار لمن لا يعتقد كفاية الله تعالى العظيمة لمن يكفيه من عباده شرور غيره. فمن لا يدرك تلك الحقيقة فإنه في جهالة، تُؤدي به إلى الهلاك والجرأة على المؤمنين، فينقلب الأمر عليه بالدمار والهلاك. لتفيد التحذير لأعداء الإسلام والمسلمين، وتفيد كذلك التطمين للمؤمنين، وأولهم رسول الله صلى الله عليه وسلم. مما يولد التوكل عند المؤمن، فتزداد شجاعته وقوته أمام الباطل وأهله. ويدرك أن سلطان الله تعالى فوق كل سلطان، وأنه القاهر فوق عباده، وهو الغالب القهار.

ثم يأتي التهكم بالمشركين وبما يقولونه، من التهديد للرسول صلى الله عليه وسلم، فيقول عَزَّ مَن قائل ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ ويهددونك تخويفاً لك ﴿ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ وهي تلك المعبودات من الأصنام، وكل شيء هو دون الله تعالى، وتحت سلطان الله عَزَّ وجل وقهره. ولكن يلزم العلم بأن ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ فإن مَن تتحقق فيه عقوبة الله تعالى بالإضلال والتيه عن الحق، فإنه ليس له ناصر يهديه إلى الحق. لأن عقوبة الله تعالى حقت عليه بالضلال. مما يفيد أن من عقوبات الله تعالى للمحاربين لدينه، أنه يمنع الهداية عمن تجاوز في طغيانه، ولا يمكن لهم تحصيلها بأي وسيلة إلا أن يشاء الله تبارك وتعالى.

وكما أنه سبحانه وتعالى يُضل من يستحق الإضلال، ويمنع عنه تحصيل الهداية، فإنه كذلك إذا تولى أحداً بالهداية فلا يستطيع أحد أن يُضله، وينتزع منه الهداية ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴾ فمن يتولى الله تعالى هدايته، وهو قوله تعالى ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ ﴾ فيوفقه للحق،

فإنه يمتنع على أي كائن من كان أن يضله ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ فليس له مَن يستطيع أن ينحرف به عن الهداية، فهو ممتنع عن غواية غيره له، لأنه مُحَاطٌ بحماية الله تعالى. مما يفيد أن من التزم بدين الله تعالى حفظه الله تعالى ووفقه. كما يفيد قوله تعالى ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ﴾ بأن الهداية من الله عَزَّ وجل، فليطلبها العبد من ربه، وأن يلزمه الثبات عليها، وأن يميته على الحق. وأن من يوفقه الله تعالى للهداية فإنه يتعذر على غيره أن يغويه، ويجره ويسحبه عن الهداية.

ثم يعلل ويبين سبحانه وتعالى سبب وقوة حمايته لمن يهديهم فيمنعهم من الضلال، بسؤال استنكار، يقرر به عزته وانتقامه عَزَّ وجل من الضالين المضلين من أهل الضلال، فيقول تبارك وتعالى ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٖ ذِي ٱنتِقَامٖ﴾ أليس متقرر عندكم أيها العباد في نفوسكم أن الله عَزَّ وجل ﴿بِعَزِيزٖ﴾ وأيضاً ﴿ذِي ٱنتِقَامٖ﴾ فهو عزيز: بأنه الغالب والقاهر لجميع الأشياء، فليس مثله شيء في العزة والانتقام والقهر والغلبة. فإن ربكم ﴿ذِي ٱنتِقَامٖ﴾ فينتقم بمعاقبة من يُكَذِّب بآياته، ويُكابر بعد علمه بها، ومعرفته بما جاء فيها، فيخالف ويعاند نبيه صلى الله عليه وسلم. والانتقام هو العقوبة والجزاء الرادع الشديد على مخالفة عظيمة جسيمة، ولذلك جعلها الله تعالى في حق الضالين المتعمدين للكفر ومحاربة رسوله صلى الله عليه وسلم ودينه القويم. مما يُوجب الحذر من انتقامه عَزَّ وجل، وذلك بطاعته، والتوبة عند وقوع الزلل والخطأ.

فهذا بيان لمقامه الكريم تبارك وتعالى ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٖ ذِي ٱنتِقَامٖ﴾ بأنه عزيز ومنتقمٌ ممن يكفر به، ويُعاند نبيه صلى الله عليه وسلم. فهو عزيز منيع الجناب، عظيم السلطان سبحانه وتعالى. وصفة العزة تتضمن القوة الكاملة، والقدرة القاهرة، فهو غالب على أمره سبحانه وتعالى. وأيضاً ﴿ذِي ٱنتِقَامٖ﴾ فينتقم ممن يكذب بآياته، ويُكابر بعد علمه بها؛ ومعرفته بما جاء فيها، فيخالف ويعاند نبيه صلى الله عليه وسلم.

﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَا

عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (٤١) ﴾

ثم يكشف ربنا تبرك وتعالى عن حال المشركين في مكة ومَن يماثلهم من غيرهم، وبأسلوب إثارة تعجب الْمُخَاطَبين من تفكير أولئك المتناقض، الذي يدل على قوة تماديهم في الباطل، فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ فحِين سؤالهم عن الذي خلق السماوات والأرض، وطَوَّعَهَا للعباد بهذه الكيفية ﴿ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ وفي هذا تقرير منهم بأنهم مدركون ومعترفون بأن الله تعالى خالق السماوات والأرض. وقد تضمن هذا السؤال ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ إقرارهم بأن الله تعالى خالق لجميع الخلائق، لأن خلق السماوات والأرض يشمل جميع ما فيها، وما بينهما. فيعترفون بقولهم ﴿ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ فَيُقِرُّون بالله خالق السماوات والأرض وما فيهما من المخلوقات. فاعترافهم يستوجب سؤالهم عن عدم إفراد ربهم سبحانه وتعالى بالعبادة. فلماذا تشركون معه غيره؟ فإنهم مع هذا لإقرار يتوجهون للأصنام بالعبادة. وبالتالي فإن عبادتهم لغير الله تعالى هو عين الكفر ودليله. كما يؤكد كفرهم مع معرفتهم أنهم مستكبرون ومعاندون، وحاسدون للرسول صلى الله عليه وسلم بالامتثال لما جاءهم به.

ثم ينتقل البيان في محاجتهم إلى تكبيتهم بالحجة الدامغة، فيقول الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم اسألهم ﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ ﴾ فإذا كان الأمر كما اعترفتم به من أن الله تعالى له ملك السماوات والأرض، فأعلموني عن هذه الآلهة التي تدعونها من غير الله تعالى، فيما لو أرادني الله سبحانه وتعالى بضر، هل تستطيع هذه الآلهة أن تكشف وتزيل هذا الضر عني؟ فلن يستطيعوا أن يقولوا نعم. لأنهم يدركون عدم قدرتها، بل والجواب المتعين والمتقرر هو: لا يستطيعون. ويترتب على ذلك أنها لا تستطيع كشف الضر عنكم. فإذاً كيف تتوجهون للعاجز، وتتركون القادر العظيم؟ فلا يستطيع أحد أن يكشف الضر إلا هو عَزَّ وجل. فهو سؤال يكبتهم ويحصر عقولهم وأفكارهم في عين الحقيقة التي لا يستطيعون الخروج منها إلا بالاعتراف بأنهم على خطأ واضح مبين. ولكن الكبر والحسد والعناد من أقوى موانع قبول الحق.

ومن دقائق البيان أن الله تعالى لم يذكر الجواب منهم، لأنه ليست هناك إجابة إلا إجابة واحدة، وهي: أن كل شيء وكل معبود من دون الله تعالى عاجز عن رفع الضر عن أراد الله تعالى به ضراً، أياً كان نوعه وحجمه ومقداره. ثم يتجه السؤال التقريري بالحقيقة إلى الحال المقابلة للضر، وهي: الرحمة ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾ أو أن الله تعالى أرادني بنعمة وبركة من نعمه التي لا تُعد ولا تحصى ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ فهل يستطعن تلك المعبودات أو غيرها إمساك رحمة الله تعالى عن أن تحل بي؟ فالجواب الذي يقررونه هو: لا يستطيع أحد من الخلق أن يمنع رحمة الله تعالى عن أحد إذا حلت به. إذاً فما الذي دعاكم أن تعبدوا تلك الأوثان العاجزة؟ وتتركون القادر سبحانه وتعالى، الذي له كمال القدرة في العطاء والمنع.

ومن دقائق البيان أن هذا السؤال لم يوقعه الله تعالى على أحد منهم في شأن وقوع الضرر أو الرحمة، بل أوقعه على رسوله صلى الله عيه وسلم، ليكشف لهم به أيضاً عجزهم عن أن يريدوا برسول الله صلى الله عليه وسلم أي شيء مما يخطر ببالهم وفي عقولهم من الضر والأذى، أو يمنعوا عنه خيراً أراده الله تعالى به، من النصر، وغيره من إنعام الله تعالى وبركاته. فهذا السؤال يبين لهم أن الله تعالى متولي رسوله صلى الله عليه وسلم، وأن أصنامهم عاجزة، ولا قيمة لها، وأنهم يعبدون ما لا ينفع ولا يضر. كما أن هذا السؤال يبين لهم أن الله تعالى عندما منح عبده نعمة النبوة والرسالة، فإنه لا يستطيع أحد أن يمنع عنه تلك المنزلة والمنقبة. فهل تستطيع آلهتكم أو أنتم منع ما أراده الله تعالى؟ فالجميع عاجز عن أن يمنع ويرد ما أراده الله تعالى، فإن أمر الرسالة ماض كما قضى به الله سبحانه وتعالى. ومن دقائق البيان أن ورد تسمية معبوداتهم بالتأنيث ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ للتحقير والتضعيف.

وبعد أن أوضح تبارك وتعالى قوته وإرادته بأنها ماضية، فلا يردها أحد، وأن آلهتهم التي يدعونها عاجزة وخائبة يتجه البيان إلى إرشاد الله تعالى لنبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم بإظهار القوة التي يعتمد عليها، فقال عَزَّ وجل ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي قل لهم: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ يكفيني الله تعالى الذي لا معبود سواه، والذي قد وثقت به وبعونه وتسديده، واتكلت واعتمدت على نصره وتوفيقه، فاستندت واعتمدت عليه في كل شيء، فإنه ناصري ومعيني ومسددي على من خالفني وتولى عن دعوتي ورسالتي التي أرسلني الله تعالى بها. ثم يعزز ذلك بإظهار أن هذا الإكفاء والعون هو لكل من توكل واعتمد على ربه سبحانه وتعالى ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ فعليه جَلَّ جلاله يتوكل كل متوكل ومعتمد على ربه عَزَّ وجل، ومفوض أمره إليه، فهو الكافي الذي يكفي من توكل عليه، في جلب مصالحهم لهم، ودفع ما يضرهم عنهم. فيدفع الضر عن المعتمدين عليه، ويمنحهم الرحمة والنعمة والخير والفضل التي لا يستطيع أحد أن يمنعها أو يُنقصها عنهم. فهو الذي بيده الكفاية التامة. مما يفيد أنهم لن يستطيعوا تغيير ما هو فيه وعليه صلى الله عليه وسلم، وأنه

سيمضي فيما هو فيه، ولن تبلغوا أنتم وآلهتكم المزعومة مرادكم من منعه ومحاربته صلى الله عليه وسلم. فعليكم بقبول دين الله تعالى بعد أن اتضحت لكم الحقائق بنور الله تعالى.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى التهديد للمشركين بأسلوب التحذير، فيقول الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴾ قل محذراً لهم على سبيل التهديد: اعملوا على ما أنتم عليه من الشرك والكفر والمعصية ﴿ قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ ﴾ أي: اعملوا على حالتكم التي أنتم عليها من الشرك، ومنابذة الحق الذي جئتكم به، وفي المقابل ﴿ إِنِّي عَٰمِلٞ ﴾ أي: سأبقى على حالتي في الدعوة إلى الله تعالى، وتبليغ رسالتي. وأما أنتم ﴿ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴾ سوف ترون النتيجة، وتعلمونها علم اليقين. من غير بيان لكيفيتها كيف تكون، ولمن تكون؟ لإفادة التهويل والتهديد والتعظيم للنتيجة التي سيرونها، ولإفادة التأكد من أن الخذلان والخسارة ستكون لهم، وأن الفوز والنجاة له صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين. وفي هذا ما يفيد التهديد والتحذير بالنتيجة التي يعز فيها الله تعالى الحق، ويوهن فيها الباطل وأهله بالهلاك والخسران المبين في الدنيا والآخرة.

فسوف تعلمون ﴿ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ﴾ فسوف تعلمون علم اليقين بالذي سيأتيه العذاب الذي ﴿ يُخۡزِيهِ ﴾ أي: يهينه ويذله، ويكسر كبرياءه، فيظهر له بذلك الخزي أنه هو المبطل، وأن خصمه هو المحق. قال القرطبي والشوكاني وغيرهما رحمة الله عليهم أجمعين: أن المراد بهذا العذاب هو عذاب الدنيا، بما يحل بهم من القتل والأسر والقهر والذلة[1] وأما الذي لهم في الآخرة فهو قوله تعالى ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ﴾ أي: في الآخرة عذاب سرمدي لا ينقطع عنهم، وهو عذاب النار. وفي هذا كمال التحذير الذي يُوجِب على العاقل الانتباه والتعقل، وطرح الاستكبار بعيداً عن مواجهة الحق، والإذعان للأدلة والبراهين والحجج التي جاءتهم من الله تعالى مع رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يعالج سبحانه وتعالى ما يكون في ذهن وخاطر رسول الله صلى الله عليه وسلم تجاه مسؤولياته حيال إصرارهم على الكفر، وما يلزمه نحو امتناعهم وتمنعهم عن الطاعة، فيقول عَزَّ وجل لرسوله عليه الصلاة والسلام ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ ﴾ يا أيها الرسول نحن أنزلنا عليك الكتاب، الذي هو القرآن

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٥/١٦٩) الشوكاني، فتح القدير (٤/٤٦٥)

الكريم لهداية الناس، بما كلفهم الله تعالى به من الحق ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ الذي هو النور الحق المبدد للجهل، والكاشف لهم ما هم عليه من الضلال. فإذن أنت تملك الحجة الواضحة البينة، التي يلزم الناس الأخذ بها.

ثم يخبر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأحوال الناس تجاه هذا الحق ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ فمن استجاب للحق فقد اهتدى، وهذه الهداية له هو، فهو المستفيد منها في دنياه وفي آخرته، ولا تتجاوزه إلى غيره. وأما من امتنع ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ ومن ترك الهدى وامتنع عنه، وبقي على الضلال، واختاره لنفسه ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ فإنما يضل على نفسه، أي: فضرر ذلك عائد عليه، لا يتجاوزه إلى غيره. وأما ما يخصك أيها الرسول بعد إبلاغك لهم بالحق، فإنك لست الضامن والمسؤول عنهم ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ فلست عليهم بوكيل تدبر وتدير عليهم إرادتهم، وتتصرف فيها، فليس عليك إلا البلاغ، وقد قمت به، فلست مكلف بتحقيق الهداية في نفوسهم، مما يفيد أن عليك أيها الرسول هداية الدلالة والإرشاد، وكل أحد هو المسؤول عن نفسه. فلست مُوكل بهم، وإنما أنت منذر، فقد بلَّغت وأنذرت. وفي هذا نفي مسؤولية الرسول صلى عليه وسلم عن عدم إسلامهم. فلستَ مُكَلَّف أيها الرسول أن تكون بمنزلة الوكيل عليهم، وهو ما تطيب به نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم من حيث المسؤولية، ومن حيث أنك بذلت الوسع، وأديت الواجب وأديت ما أنت مكلف به من مسؤولية. وفي نفس الوقت يحمل هذا البيان التحذير لهم من مغبة تكذيبهم.

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

ينتقل السياق الكريم إلى بيان المزيد من عظيم قدرته سبحانه وتعالى في هذا الإنسان العجيب، فيقول تبارك وتعالى ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ يخبر الله تعالى بأنه هو الذي يقبض الأرواح ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ ﴾ فالأنفس هي الأرواح، ويتوفاها بقبضها ﴿ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ أي: حين مفارقة الروح للبدن، وهي المفارقة التي تزول بها حياة الإنسان. وهي الموتة الكبرى. فموت الإنسان هو بإرادة الله تعالى المطلقة، وفق ما حدد لكل أحد من عباده العمر الذي يعيشه في الدنيا.

وأما التي لم تمت الموتة الكبرى وهي الحالة الأخرى، فقال عنها عَزَّ وجل ﴿ وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾ أي: والتي لم يتحقق فيها الموتة الكبرى عند حصول النوم، فلم تخرج الروح من الجسد، حين حصول منامها، فإن الله تعالى يقبضها لكنه ليس قبضاً نهائياً، بل هو قبضاً مؤقتاً، بدليل إحساس النائم بقدر محدد من الإحساس، وانعدامه بقدر محدد، فلا يرى ما يدور حوله، وقد لا يسمع ما تنبعث من أصوات خفيفة في مدار سمعه، وفي نفس الوقت يوقظه الصوت ولمس وإمساك بدنه. فيكون التواصل بينه وبين روحه غير منقطع انقطاعاً تاماً كمن يموت موتته الكبرى. وكذلك ليست صلة الروح بالنائم كصلتها بالمستيقظ. وهنا نجد أن الله سبحانه وتعالى قد سَمَّى النوم وفاة. كما قال تعالى في سورة الأنعام ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ فهذه صورة لحالة من حالات الإنسان الباهرة العظيمة، التي يفقد فيها الإنسان مشاعره عند نومه، وتنتقل حالته إلى حالة شبيهة بحالة الموتة الكبرى، فينتقل من اليقظة إلى الوفاة الصغرى، ثم تحدث بقدرة الله تعالى ومشيئته عملية الاستيقاظ ، وقد يستقصر المستيقظ ساعات غيابه في نومه، مع أنه يعيشها يومياً، فمن هو الذي أخذ هذه النفس مدة نومها، ثم أعادها لتعود كما كانت من الحركة بعد السكون الذي عَطَّل الوعي عنده، فعادت إلى الشعور بعد عدمه، ومن الغياب إلى الانتباه، فقد كانت غائبة عن الوجود ثم عادت. اليس الذي غيبها ثم أعادها بقادر على إعادتها بعد موتتها الكبرى؟ قياس الحقائق بعضها ببعض ليتأكد كمال قدرة الله تعالى على البعث والحساب والجزاء.

وقد سمى الله تعالى تلك الحالة بالوفاة، لأنها تشبه وفاة الموت ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ ﴾ ومعنى الْتَّوَفِّي كما قال بعض أهل العلم، ومنهم القرطبي رحمهم الله تعالى: هو استيفاء الشيء. وتوفي: أي استوفى

عدد أيام عمره، فالذي ينام كأنه استوفى حركته في اليقظة، والوفاة: الموت[١] والنوم هو قبض الروح عن التصرف، كما تُقبض بالموت. فلفت الله تعالى انتباه الإنسان إلى أنه هو الذي بقدرته سبحانه وتعالى تَوَفَّى النائم في منامه. فإن الذي يتوفاكم بالليل حتى تنعدم إحاطتكم بأنفسكم، هو الذي أحاط بكم علما في حركتكم، وما تكسبون، وما تعملون في النهار. وكما أعاد الروح للنائم بعد فقده لها، فإنه هو الذي يعيد الروح للجسد يوم البعث والنشور. فأين المعجزة؟ وهذا استدلال عميق الأثر والبيان والتوضيح الذي يبطل به شكوك الكافرين المنكرين ليوم البعث، وما يتبعه من الحساب والجزاء.

فيمسك تبارك وتعالى التي قضى عليها الموتة الكبرى، التي هي الوفاة النهائية من الدنيا ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ فيمسك بقدرته سبحانه وتعالى النفس التي قضى عليها سبحانه وتعالى أجلها بالموت، وذلك بإخراج الروح التي في الجسد عند قضائه عَزَّ وجل بموتها الموتة الكبرى ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وأما النفس الأخرى التي لم يحن عليها أجلها، فإنه سبحانه وتعالى بكمال قدرته يعيدها للبدن ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: إلى الوقت والزمن والعمر الذي حدده الله سبحانه وتعالى لذلك الإنسان.

ثم بعد ذلك يشير تبارك وتعالى إلى عظيم قدرته فيما أوضحه من قبضه للأنفس، وأنواع قبضها، وكمال تحكمه فيها، فيقول عَزَّ وجل ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ إن في ذلك الذي بيناها لكم أيها الناس ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ لدلائل وحجج وبراهين من عظيم قدرتنا المتنوعة لمن أراد أن يتفكر ويستدل بها على الإيمان بالبعث ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ لقوم يعملون فكرهم بالتأمل الموصل للحق، فلا يعطلون فكرهم فيما يرونه ويحسونه من قوة تدبير الله تعالى، فيتوصلون بذلك إلى كمال قدرته عَزَّ وجل، فإن الذي أعاد النفس إلى جسد صاحبها بعد قبضها حين نومه، فإنه هو القادر على إعادة الأنفس والأجساد يوم القيامة. أفلا تدل هذه الحالات على كمال قدرته عَزَّ وجل؟ حين يمسك الروح، ثم تعود للنائم بالسرعة الرهيبة العجيبة التي تجعله يستيقظ حين ما يستوجب منه الاستيقاظ، كسماع الأصوات المزعجة. بينما حين يمسك الروح عند الموتة الكبرى، فتفارق الجسد، فإنه لا حراك له، بعكس حالة النائم. فهما حالتان عجيبتان عظيمتان، تدل على عظمة الله عَزَّ وجل، وعلى كمال قدرته سبحانه وتعالى، ومنها البعث بعد الموت.

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧/٥)

فهناك نومة يتكرر فيها التجاذب والتواصل بين الروح والجسد، وهناك نومة ينعدم فيها التواصل بين الروح والجسد، بل هو انقطاع تام بينهما في الدنيا. لأنه حصل لها إمساك نهائي من الله تعالى ﴿ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ ﴾ بينما تكون حالة النائم فيها الإرسال للروح من الله تعالى ﴿ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ فالذي يرسل والذي يمسك هو الله تعالى، مما يبين عظيم قدرته عزَّ وجل، وقوة آياته الباهرة ﴿ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ وقد أفاد قوله تعالى ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ مدح لمن يتفكر، وأنهم هم الذين يستفيدون من حجج الله تعالى وبراهينه، وأما من لا يتأمل ولا يجعل عقله يتدبر ويفكر فإنه قد منع نفسه من إدراك الحق، وعَطَّلَه عن منافعه، وأوقع نفسه في الخسارة العظيمة الأليمة.

فقد كان في تدرج البيان تعليم من خلال إثارة الذهن واستثارته لحالة الإنسان التي يعايشها، وهي حالة العلاقة بين الروح والجسد، وما يظهر منهما من علاقة عظيمة، إذ يترتب عليها حياة الإنسان وموته. كما أن في تردد الروح بين الجسد وبين مفارقته له آية عظيمة لتلك المفارقة العجيبة. ففي ذلك تدرج في التعليم والإعلام من السكون إلى الحركة، فَمِن حال النوم إلى حال اليقظة، ومن إيقاع الوفاة والسكون بكم إلى العلم بدقائق حركة الإنسان، فسبحان الله العظيم.

ثم يستمر إنكار الله سبحانه وتعالى على المشركين الذين اتخذوا شفعاء من دونه عزَّ وجل. فيقول تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم على سبيل تصحيح عقولهم والإنكار عليهم وعلى ما أودى تفكيرهم بهم من الانحطاط والتردي، فيقول جَلَّ شأنه ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ أم أن هؤلاء اتخذوا معبوداتهم من دون ربهم سبحانه وتعالى، لتشفع لهم عند الله عزَّ وجل في تحقيق وقضاء حاجاتهم وطلباتهم ورغباته؟ ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ﴾ فهو سؤال استنكار ولوم على هذا الصنيع وهذا الفعل، بما يفيد بأنهم لم يتفكروا في آيات الله تعالى، فلو فكروا فيها لما اتخذوا آلهة البتة.

ثم يتأكد هذا الإنكار بقوله عزَّ وجل ﴿ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ قل لهم أيها الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ أَوَلَوْ كَانُوا۟ ﴾ أولو كان هؤلاء الذين تطلبون الشفاعة منهم ﴿ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا ﴾ قد انتفت منهم ملكية أي شيء. وفي هذا اثبات أن كل ما تعبدونه من دون الله

تعالى لا تملك شيئاً أصلاً، بل ورد الشيء بصيغة النكرة ﴿شَيْـًٔا﴾ ليفيد استيفاء النفي لجميع أنواع الملك، بأنه نفي مطلق وشامل. وبالتالي كيف تتجهون لعاجز لا يملك شيئاً؟ فتطلبون منه مرادكم، وتتركون مالك الملك سبحانه وتعالى. بل إن تلك المعبودات من دون الله تعالى صماء ﴿وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ ليست لتلك الأصنام عقول، يمكن أن تفكر بها، فيستجيبون لكم. فانتفاء الملك والعقل عنهم أقوى دليل على بطلان شركم. مما يفيد التوبيخ لمن هذا فكره وفهمه حتى اتخذها معبودات، ليتقرب إليها ويلتمس رضاها وهي صماء، وفي هذا حث لهم للارتقاء بفكرهم وفهمهم، واتباع حجج الله تعالى وآياته العظيمة. مما يبين أن منهج دين الله تعالى قائم على العلم، والحجة والبرهان، وأنه يقوي عقل المتلقي له، ويرفع من تفكيره، بل ويعلمه كيف يفكر حتى يصل إلى الحقائق. مما يبين أن من أراد الارتقاء بعقله فعليه بالقرآن الكريم، ومن أراد أن يتعلم كيف يقيم الحجة للحق ويبطل الباطل فعليه بالقرآن العظيم، ومن أراد أن يزيل الشك والريبة من عقله أو عقول غيره فعليه بالقرآن، فإنه علم متكامل يأخذ من اعتنى به من الجهل إلى العلم، ومن الظلام إلى النور، ومن الباطل إلى الحق، وبأسلوب فريد في إقامة الحجج والتعليم والإرشاد. فالحمد لله رب العالمين على نعمة الإسلام ونعمة القرآن العظيم.

ثم يصحح لهم سبحانه وتعالى شأن الشفاعة، فيأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بما يقوله لهم ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ قل لهم أيها الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ جميع الشفاعة له سبحانه وتعالى، فهو نفي قطعي من أن تكون لأحد من الخلق، إلا بعطاء من الله تعالى لمن يرضى له الشفاعة، فإنها مرهونة بإذنه وموافقته تبارك وتعالى وكذلك لمن ارتضى. كشفاعة النبي صلى الله عليه للناس يوم المحشر ﴿لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ فالشفاعة ملك لله تعالى، بل ورد البيان بها على سبيل الحصر والقصر عليه عَزَّ وجل. ثم يؤكد ملكيتها بملكيته سبحانه وتعالى للسماوات والأرض ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فربكم يملك السماوات والأرض وما فيها، ويملك التصرف بها كيف يشاء، فله الإرادة المطلقة، فيفعل ما يريد فعله. فكما أن له كمال الملك فإن له كمال التصرف، وبالتالي ينتفي أن يتصرف أحد في ملكه وتدبيره بغير إذن منه. وفي هذا إبطال لكل إرادة من أي مخلوق إلا بموافقته سبحانه وتعالى، والتي منها الشفاعة، فإن التمكين لله وحده لا شريك له، فَيُمَكِّن المخلوق بما رضي به من الشفاعة أو الرزق أو غير ذلك، مما يعني بأن لا تطلب شيئاً إلا من الله تعالى فيما هو حق لله عَزَّ وجل. وأن الأسباب كلها لا تقوم بما يكون منها إلا بتوفيق الله تعالى وإرادته عَزَّ وجل.

ثم يعزز ذلك الملك والأمر بإثبات عودة الخلق له جَلَّ في علاه ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيقرر بذلك البعث والحساب والجزاء من خلال تقرير أن مرجعهم وعودتهم ستكون له عَزَّ وجل، بقوله جَلَّ شأنه

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ثم بعد انقضاء الدنيا تعودون إلى ربكم، ببعثه لكم، ومحاسبته لكم، ومن ثم تقرير الجزاء لكل أحد بما يناسب ما كان منه، من الطاعة أو المعصية. بما يفيد الإعلام والإخبار والتحذير لهم مما هم فيه من الشرك.

ثم يكشف الله تعالى عن حال قلوب الكافرين، وما يكون منها حال سماعهم ذكر الله تعالى، فيقول عَزَّ وجل ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ فإن حال هؤلاء الذي لا يؤمنون بالآخرة هو النفور من سماع ذكر الله تعالى ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ﴾ فإذا تم ذكر الله تعالى وحده، ومن غير أصنامهم وما يشركون به ﴿ٱشۡمَأَزَّتۡ﴾ انقبضت، ونفرت وذعرت ﴿قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ فعدم إيمانهم بالآخرة، مع أعمالهم الرديئة تجعلهم ينفرون، ولا يريدون سماع شيئاً من ذكر الله تعالى، الذي يذكرهم بالآخرة وبما يجب عليهم. لأن النفوس تنفر مما تكره، وهذا يبين شدة كراهتهم لذكر الله تعالى، ولكل شيء يذكرهم بما يجب عليهم، لما في ذلك من ردعهم عن شهواتهم الباطلة، فهم يريدون ما هم عليه من الباطل، فينفرون من الحق.

وتعطي دلالة ﴿ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ شدة النفور عن كل ما يتعلق بالله تعالى، وانبساطهم وفرحهم وسرورهم بما يكون من اللهو والشهوات، فإذا رأوها أقبلوا عليها. مما يدل على قوة تماديهم في الكفر، فجعلهم ينفرون مما يضبط تصرفاتهم وهو ذكر الله تعالى. الذي تتحقق لهم به الطمأنينة والسعادة لمن آمن، بما يبين أنهم بلغوا مبلغاً عظيماً في الكفر ورغبتهم في الشهوات الباطلة. مما يدل على أن الإيمان بالآخرة هو الضابط للنفس عن الباطل، بل ومانع لها عن ابتغائه، أو محبته، أو الركون إليه. لأن الإيمان باليوم الآخر يعني الإيمان بالبعث والحساب والجزاء. مما يضبط سلوك المؤمن، ويتحرى الدقة في أعماله وتصرفاته وأقواله. مما يبين نعمة الإيمان في انكفاف النفس عن الشر، وابتغائها الخير.

ومن دقائق البيان تعيين القلب دون غيره بمشاعر الاشمئزاز ﴿ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ لأنه المضغة التي يكون منها الانقباض، أو الانطلاق والإقبال على الشيء، وأنه هو المحور والمركز في المشاعر والتصرفات، وبالتالي تكون الإرادة تابعة للقلب، ومُنبعثة منه، ثم بقية الجوارح تبعاً لقوة الإرادة في الطواعية والامتثال. ويعني الاشمئزاز: الانقباض النفور من الشيء.

ثم يكشف الله تعالى حالهم المناقض لحالهم الأول، فيقول تبارك وتعالى ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾ وحين يكون الحديث بينهم فيما هو من دون الله تعالى، أي: في شأن معبوداتهم من الأصنام وغيرها ﴿إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾ يفرحون، ويدخلهم السرور، فيظهر على وجوههم السرور والبشر والفرح، فتتهلل وجوهم انشراحاً وسروراً. وهذا التباين في الحالتين يُظهر تناقضهم حتى في مشاعرهم، فبدلاً من أن يكون السرور في ذكر الله تعالى جعلوه في ذكر أصنامهم وشهواتهم. وبدلاً من أن يكون الصدود والألم والندم عند ذكر شهواتهم ومعبوداتهم من الشرك فإذا بهم يفرحون ويستبشرون ويتفاءلون عند الحديث عنها. مما يدل على عظيم توغل الجهل والكفر في قلوبهم واستحواذ الشهوات والشبهات على قلوبهم، فانعكس ذلك على نظرتهم للحق. فنسأل الله تعالى العافية، ونحمده على نعمة الإيمان.

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ٤٦ وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ ٤٧ وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٤٨ فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭۚ بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٩ قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٥٠ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ٥١ أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٥٢ ﴾

ولما تمرد الكفرة بعدم قبولهم ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، يأمر الله تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يعلن تفويض الأمر لربه سبحانه وتعالى، بأسلوب التعظيم لله عَزَّ وجل، والتخويف والإنذار للمشركين الكافرين، فقال تعالى ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴾ قل يا أيها الرسول ملتجئا لخالق السماوات والأرض ومدبرها، وعالم الغيب الذي لا يغيب عنه شيء، وعالم الشهادة لكل ظاهر ﴿أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴾ أنت وحدك يا الله تحكم وتفصل بين جميع عبادك يوم القيامة فيما يختلفون فيه.

وقد بدأ التوجيه الكريم بفعل الأمر ﴿ قُلِ ﴾ قل بما أقوله لك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم، مستهلاً لقولك ﴿ ٱللَّهُمَّ ﴾ أي: يا الله، فهو نداء واستغاثة باسمه العظيم، ثم بقوته وكمال ملكه من ربوبيته ووحدانيته، وعظيم سلطانه سبحانه وتعالى ﴿ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي: خالق السماوات والأرض على وجه الاختراع والابتكار، بإيجادها من العدم، بما يفيد إظهار قوة الله تعالى، مع التحذير مما يدعو به صلى الله عليه وسلم، الذي لا يشك أحد في أنه سبحانه وتعالى خلق هذه المخلوقات العظيمة. وفي هذا تذكير وبيان وتعليم وتعريف بحقيقة الوجود، بأنه لله عَزَّ وجل، وإزالة جهل كل جاهل بها وعنها. فهو الذي له ما خلق من السماوات والأرض وما فيهما من مخلوقات، فله الملك وله الخلق، وبالتالي له كمال التدبير، ووجوب الطاعة. وقد شملت دلالة ﴿ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أنه مخترعها، وأنه مبدعها، فالذي اخترع السماوات والأرض بهذه العظمة هو العظيم الذي لا عظيم غيره، وهو الذي يجب على العباد طاعته. وقد شمل خلق السماوات كل ما هو مرتفع من الأفلاك والأجرام وغيرها مما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، كما شمل ما غاب من عالم الملائكة والعرش وغير ذلك مما هو في الملكوت الأعلى، وشملت الأرض كلما هو عليها أو خارج على سطحها، أو في داخلها وباطنها.

ثم تلاه في الدعاء بكمال وعظيم علمه عَزَّ وجل ﴿ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ أي: العالم بما غاب عن خلقه من مخلوقاته التي لا تُعد ولا تُحصى، وما غاب عن بعضهم البعض؛ مما تخفيه الضمائر والنفوس، وما تكنه الصدور. ثم ذكر عَزَّ وجل: علمه بالظواهر، المتضمنة في دلالة الشهادة ﴿ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ مما يشاهده الخلق ويعاينونه بحواسهم المختلفة. ثم تقرير حكم الله تعالى بين العباد فيما يختلفون فيه من الأحكام والقبول والرفض ﴿ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ فأنت وحدك يا الله الذي يقضي بين جميع العباد بالعدل فيما يختلفون فيه. فينفي سبحانه وتعالى أن يكون غيره الذي يفصل، حيث حصر الفصل له وحده عَزَّ وجل، الذي له الشأن كله في الفصل بالقضاء والحكم العادل بين المؤمنين والكافرين يوم القيامة، فيما كانوا فيه يختلفون في الدنيا من أمور الدين، وأمور البعث والثواب والجزاء. بما يفيد تقرير القضاء، وتقرير الجزاء العادل، فثواب المؤمنين الجنة، والكافرين النار.

وفي الآية شمول واتساع دلالتها لعموم الفصل، بأن الله تعالى هو يفصل بين المختلفين، بين الأنبياء، وبين أممهم، وكذلك هو وحده الذي له الشأن في الفصل بالقضاء والحكم بين الناس فيما كان منهم من الاختلاف والحقوق والظلم، وكذلك ما كان بين المؤمنين والكافرين يوم القيامة، فيما كانوا يختلفون فيه في الدنيا من أمور الدين، وأمور البعث والثواب والجزاء. بما يفيد تقرير القضاء، وتقرير الجزاء العادل، فثواب المؤمنين الجنة، والكافرين النار. ليعطيهم بهذا الدعاء التفويض لله تعالى بالحكم، وأنه عليه الصلاة والسلام ليس مُكلَّف ولا مُلزم

بهدايتهم، وإنما هو ملزم بالإبلاغ والإرشاد، كما أن في الدعاء ما يبين لهم عظمة من استعان به صلى الله عليه وسلم، وهو الله فاطر السماوات والأرض، والعالم بالغيب والشهادة، بحيث لا يفوت على الله تعالى شيء مما يعملون أو يُسرُّون به بينهم، أو يخفونه في صدورهم، فإن الله تعالى لهم بالمرصاد وسيحاسبهم، بتقريره بالبعث والحساب والجزاء، فيجازي المحسن بإحسانه، ويعاقب المسيء بإساءته. وبالتالي سيظهر الحق بين اختلاف المختلفين، وظلم المتظلمين، وتخاصم المتخاصمين.

ثم يخبر جَلَّ جلاله بشدة عذاب الظالمين يوم القيام، فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴾ فإنه لو كانت لهؤلاء الظالمين لأنفسهم، ولرسلهم، وللحق الظاهر، امتلاك الأرض جميعاً، وكذلك مثله معه، فَيُقَدِّمُونه عوضاً عن ذلك العذاب لقدموه وافتدوا به فيما لو قُبِل منهم لهوله وشدته، ولن يُقبل منهم ذلك فيما لو استطاعوا، مما يبين هول وشدة ما ينتظرهم من العذاب.

وقد قدم الله تعالى بيان حالهم ومشاعرهم حيال معاينتهم للعذاب، قبل أن يبين وعيده لهم بصفة العذاب، الذي قال تعالى عنه ﴿ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ فلهؤلاء عند الله تعالى ﴿ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ دقة المناقشة عن أعمال الذنوب التي اقترفوها كلها، فإن الله تعالى لن يغفر شيئاً منها لهم، ولن يتجاوز لهم عن سيئة من سيئاتهم. ليتحقق فيهم ﴿ سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ ﴾ وفي هذا تحذير شديد، ووعيد عظيم، وتوبيخ وتقريع لمن بقي على كفره. وفي تقديم وصف حالهم على بيان وعيده لهم بسوء الحساب، ما يفيد استثارة أنفسهم، وتعظيم جرمهم لعلهم يتوبون. فقد استحقوا بعدل الله تعالى قوة الحساب ودقته المتضمن لدقة تفنيد الذنوب، المليئة بالخزي والعار. فنسأل الله تعالى السلامة.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بظهور شدة عقابه عَزَّ وجل الذي لم يكن في حسبانه وتوقعهم ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴾ فظهر لهم من سخطه سبحانه وتعالى عليهم وشدة العذاب ما لم يكن في خاطرهم وتصورهم. ليقرر به حقيقة البعث، ويستنكر به على من يظن أن الله تعالى لن يجازي، ولن يبعث من يموت. وفي هذا شد الانتباه، ولفت الذهن للحسبان وللتوقع والظن الخاطئ. فهل تحسبون أيها الظالمون أن تُتركوا من غير جزاء، فلن يُماثل بكم ربكم المتقين. وقد ورد تأكيد هذه الحقيقة الربانية بإثبات ما سيكون قبل أن يكون ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴾

وكذلك من أحوال الظالمين يوم القيامة قوله تعالى ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فظهرت لهم يوم القيامة سيئات ما اقترفوه في حياتهم الدنيا، بظهور أهوال العذاب، فلما رأوا ما لم يحتسبوه من العذاب، تبينت وظهرت لهم حقيقة يوم القيامة وعقوبة سيئاتهم التي اكتسبوها في الدنيا، ثم أحاط بهم العذاب ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وأحاط بهم وطوقهم ونزل بهم العذاب الذي كانوا يستهزؤون به في الدنيا، فتغمدهم وأحاط بهم ما كانوا يستهزئون من الإنذار بعذاب الله تعالى، ومن البعث والنشور، والحساب والجزاء. فهذا إخبار من الله تعالى بما سيكون قبل أن يكون لإفادة التحذير لكل مستهزئ ومستهتر بما ورد عن الله تعالى، وأخبر به رسوله صلى الله عليه وسلم. مما يلزم الحذر والوقاية بالطاعة والامتثال لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم. وهذا من رحمة الله تعالى بالعباد أن أنذرهم وأرشدهم بكل الطرق الموضحة للحق. وأنه ما خلق الخلق إلا لعبادته، وما أراد بهم العذاب إلا لمن امتنع عن الطاعة.

ثم يوضح ويخبر الله عَزَّ وجل بأحوال الناس مع ربهم تبارك وتعالى في الدنيا حال ما يصيبهم الفزع من الضر، وحال ما يصيبهم الوسع والرخاء ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فإذا مس الإنسان الضر أثناء مسيرة حياته اتجه إلى ربه تبارك وتعالى بالدعاء والإنابة والإخلاص في ذلك، فيعقد رجاءه في الله تعالى وحده لا شريك له، ويترك ما يدعو من دونه عَزَّ وجل من المعبودات الأخرى. فأوقف الله تبارك وتعالى هذا الإنسان على حقيقته، وحقيقة شركه في الرخاء، وحقيقة توحيده لله تعالى في الشدائد.

فبدأ النص الكريم بإيقاف الإنسان على حالته في الشدائد ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ﴾ والمس هو الالتصاق، الذي يفيد المباشرة والاصطحاب، والذي يعني التصاق الضر بأحوال الإنسان التصاقاً يعايشه ولا يفارقه حال وجود الضر. وينتج بتزامن الإصابة الملامسة للقلوب التي هي محل الإحساس والتفاعل، وذلك لما يصيب الإنسان من الهلع والخوف مما يجد ويتوقع من عواقب الضر ونتائجه. وأما الضر فهو كل ما يتضرر به الإنسان، قال الزمخشري رحمه الله تعالى عن معنى الضر: الشدة من هزال، أو مرض، أو قحط، أو غير ذلك[1] وما يكون في المال والولد والمعيشة، والخسارة في التجارة وما يماثل ذلك.

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٤٧٧/٣)

ومن دقة البيان تعميم الضر، ليشمل جميع أنواع البلاء، ودرجات شدته. ومن إثارة النفس نحو بيان حالها أن ورد البيان على وجه التعميم لجنس الإنسان ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ﴾ لبيان المبالغة باعتبار أكثر الناس هم الكفرة. فإذا أصاب الإنسان ما يضره، أو ما يحصل له به الضرر من الجهد والشدة، دعا الله تعالى في جميع أحواله وحركاته، مضطجعاً وقائماً وقاعداً، وذلك من شدة ما أصابه، وعدم تحمله له. ومن دقة البيان أن الله تعالى ذكر الضر ﴿ ضُرٌّ ﴾ عاماً ونكرة، فاستوعب جميع أنواع الضر، في تعدد أنواعه وأشكاله ودرجاته، وكذلك مواطنه من الإنسان، فاستوعبت واستوفت كلمة ﴿ ضُرٌّ ﴾ جميع أنواعه، واختلاف حالاته، ومواقع أثره من الإنسان، سواء في جسده أو ماله أو أهله أو في غير ذلك.

وعند حصول الضر يتجه الإنسان بكل حواسه، وبجميع ذاته إلى ربه تبارك وتعالى ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ﴾ فحين يُصاب الإنسان بشيء من الضر يتجه إلى ربه في إخلاص من الدعاء، الذي لا يخالطه غيره، لإدراكه أنه لا يزيل الضر عنه إلا الله سبحانه وتعالى، وأنه الواحد الأحد القادر على إزالته ومحوه، وإزالة حتى أثره.

وفي ذلك إيقاف الإنسان على الحقيقة، فلماذا يا أيها الإنسان لا تستنجد بربك وتُخْلِص له سبحانه وتعالى إلا عند حلول الكرب؟ بينما أنت في حال الرخاء لا تخلص له في العبادة، بل تدعو من دونه شركاء مزعومين باطلين. ليبين للكافر والمشرك وغير المخلص، واللاهي حقيقة التوحيد التي فُطِر عليها الإنسان، ويصحح له المذهب والاتجاه الفكري، بإعادته إلى الحقيقة الفطرية. ولتظهر لهم حقيقة أنفسهم، وحقارة ما كانوا عليه قبل الضر. وهذا يدل على أن منهج الله تعالى قائم على الحقائق، وأن الدعوة الإسلامية مبنية على الوضوح والحق. وأن دين الله تعالى واضح لا لبس ولا خفاء فيه. وكذلك أهمية المحاجة بالحق، وأن الأدلة الشرعية كافية في بيان الحق، وأهمية أسلوب الحوار والتحليل، لإعادة الإنسان إلى حقيقته، وليكتشف بنفسه ما هو عليه من الخطأ والخطر. كما يستفيد المؤمن من هذا البيان الكريم أن يحرص على أن يكون ملجأه هو الله تعالى في السراء والضراء، ثم الأخذ بالأسباب. كما يفيد ذلك البيان عظمة محتوى القرآن الكريم من الأدلة والحجج والبراهين التي تُظهر الحق، وتُبطل الباطل.

ثم يخبر ويكشف سبحانه وتعالى حال الإنسان عند إصابته بالرخاء ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْـمَةً مِّنَّا ﴾ ثم إذا أزلنا عنه ما كان به من ضر، لأن ﴿ ثُمَّ ﴾ تفيد الترتيب والتتابع، كما أفادت ﴿ إِذَا ﴾ التحول من حال الضر إلى حال الإنعام ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ ﴾ أي: اعطيناه ﴿ نِعْـمَةً ﴾ من النِّعَم التي يتمناها ويدعو ربه بها

لتحصيلها. وقد نسب تبارك وتعالى الإنعام له عَزَّ وجل بدلالة ﴿ خَوَّلْنَـٰهُ ﴾ ثم تم تأكيد العطاء منه سبحانه وتعالى بضمير المتكلم، أي الْمُعْطِي ﴿ مِّنَّا ﴾ لتأكيد أن الإنعام هو من الله وحده سبحانه وتعالى. وقد وردت دلالة النعمة على وجه العموم دون تخصيص بنوع معين ومحدد من النعم، لتستوفي وتشمل جميع أنواع النعم ودرجاتها. كما أنها وردت بصيغة النكرة ﴿ نِعْمَةً ﴾ لتفيد العموم. أي: عموم النعم، فإذا أبدلناه فرجاً مما كان فيه من الضر، كالصحة والعافية بعد السقم، وكالغنى بعد الفقر، وكالرخاء بعد العوز والحاجة، وكالمكانة بعد الذل. فإن الإنسان ينقلب من الرجاء إلى البطر والتعالي.

فبعد الرخاء وزوال الضر ينقلب هذا الإنسان عن حال الضعف والمسكنة، ويخرج بحالة التكبر والاستعلاء. فيقول الله عَزَّ وجل عنه ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ إنما تم حصولي على ذلك بفهمي وعلمي ودرايتي بأوجه التحصيل للنعمة. فحصر وقصر تحصيل تلك النعمة على نفسه بأداة الحصر ﴿ قَالَ إِنَّمَآ ﴾ أي: إنما تم تحصيل ذلك الذي حصل من النعمة بناء على علمي الشخصي من الفهم والدراية بأوجه المكاسب، وفنون التحصيل، والحذق في ذلك. فنسب العلم لنفسه ﴿ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ بمعنى: إنما أوتيته لفضل علمي وتبحري في المكاسب وتحصيل المنافع، ودفع الضرر وتلافيه، وما أنا عليه من القدرة والتمكن، فاستحقاقي هو بسبب ما عندي من العلم الذي أفضل به على غيري.

وأفادت دلالة ﴿ أُوتِيتُهُۥ ﴾ معنيين: أحدهما: إنما أوتيته لاستحقاقي وشرفي ومكانتي وحظوتي عند الله تعالى. كما قال ابن كثير رحمه الله تعالى وبعض أهل التفسير: أي: لِمَا يعلم الله تعالى من استحقاقي له، ولولا أني عند الله خصيص لَمَا خولني هذا[١] والمعنى الثاني: أني قد أُعطيت هذا الخير بالأسباب والعلم والمعرفة التي يعرفها بحذقه من التكسب، وتفادي الخسارة، أو حذقه بالعلاج من المرض، أو بفهمه في تحقيق المكانة بعد الانكسار، أو في غير ذلك من أوجه تحصيل النِّعَم التي لا تُحصى. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: ما أوتيت الذي أوتيته من نعمة إلا لعلم مني بطرق اكتسابه[٢] أي: العلم بطرق المرابحة، ودفع الضرر والضر، فبهذه الدلالتين استوفت حالة الإنسان الذي يقول: أعطاني ربي كذا وكذا لمكانتي عنده. واستوفت كذلك الذي يقول: حصلت على ذلك الشيء بسبب علمي وقدرتي وفهمي لذلك الأمر والشأن. وبالتالي كلا الدلالتين

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٦٢/٤)

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٦٥٠/٩)

صحيحتين. مما يدل على قوة البيان وبراعته وإعجازه البلاغي في القرآن الكريم، إذ يستوفي المراد مهما تعددت حالاته وأنواعه، وبسياق واحد، فلا حاجة للتكرار.

ثم يخبر الله تعالى عن سبب وعلة ما يحدث وما يكون من الإنسان مما أخبر به آنفاً سبحانه وتعالى بأن ذلك هو من أجل التمحيص والاختبار، فبدأ الرد عليهم بحرف ﴿ بَلْ ﴾ الذي أفاد إبطال زعمهم المنافي للحقيقة، من أنه بسبب علمهم وقدرتهم على التدبير، وعينه وخصصه تبارك وتعالى بأنه في باب التمحيص والابتلاء ﴿ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ ﴾ فليس ذلك الذي أعطيناك ومنحناك أيها الإنسان إلا امتحان واختبار وتمحيص لك، أتشكر الله تعالى، وتتبرأ من حولك وقوتك، أو تتفاخر وتنسب ما بك من نعمة لعلمك وحذاقتك. فإن إعطاء الله تعالى اختبار وابتلاء وتمحيص للعباد. مما يستوجب على الإنسان أن يحمد الله تعالى، ويقر بقلبه ولسانه وجوارحه أن الفضل لله تعالى فيما منح من الإنعام، وفيما أزاله من الكربات. ويتبرأ من حوله وقوته، فلا حول ولا قوة لأحد إلا بقدرة الله تعالى ومشيئته، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن. وقد بين تبارك وتعالى جهل الجاهلين بذلك، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فأكثر الناس لا يعلمون أن ذلك تمحيص لهم، واختبار من ربهم لهم، لِيُظهِر ويكشف منهم كيف يكون حالهم عند توارد النعمة عليهم. فالحمد لله رب العالمين على جميع ما أنعم به علينا، من نعم لا تُعد ولا تُحصى.

مما يفيد أن الإنسان عندما يوفقه الله تعالى لتحصيل مراده من الخير، ويُسهل ويُسخر له الأسباب، لا يظن أن ذلك من فطنته، فيقول شارحاً ومبيناً حذاقته بقوله: ربحتُ وحَصَّلتُ وكسبتُ، حيث عملت كذا وكذا، بما يشير إلى أنه بحذاقته وفطنته تحصل على ما نال من الخير، فيصيبه الغرور. وإنما الصواب أن يعتقد اعتقاداً جازماً بأن الله تعالى هو الرزاق، وهو المعطي، وهو الذي وفقه بتهيئة الأسباب، ومزامنتها لتحصيل المراد، فكان الأمر هو بتوفيق الله تعالى وإرادته حتى يتحقق له ما حَصَّلَه من الخير. وأنه لولا توفيق الله عَزَّ وجل لما فَطِن للأسباب، ولأوقعه جهله في الخسارة الفادحة. فإن الله تعالى هو الهادي والموفق.

ثم يخبر الله تعالى بأن قولهم ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ ليس هم أول من قال بذلك، فيقول تبارك وتعالى ﴿ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ فالذين من قبلهم من الأمم السابقة قالوا بمثل ذلك. ولكن كانت النتيجة عليهم أنه لم يتحقق لهم من قولهم بها الخير ﴿ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ فما أغناهم ما كانوا يكسبون من الأموال والأولاد والجاه والمكانة بأن اندفع عنهم العذاب. فما دفع عنهم ما استغنوا به شيئاً من عذاب الله تعالى، ومحاسبته لهم. وبالتالي ما صح قولهم الذي قالوا، وما منع عنهم ما كانوا يكسبون ويجمعون شيئاً من عذاب الله تعالى. مما يفيد أنه مهما بلغ الإنسان من الجمع والتكثر فإنه

لا يغنيه عن الله تعالى، ولا يدفع عنه الشر، ولا الحساب، ولا يدفع عنه عذاب الله تعالى وسخطه، ولا أن يمنع عنه أن يحل به الفقر بعد الغنى، والهلاك بعد العافية، والسقم بعد الصحة، والقلة بعد الكثرة.

ثم يخبر ويؤكد جَلَّ جلاله بحقيقة ما نفاه سابقاً وهو ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ بقوله تبارك وتعالى ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ فقد تحقق في الذين قالوا ذلك القول من الأمم السابقة، ما يستحقون ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ ﴾ فتحقق فيهم وبال وسيئات ما كسبوا، بأن أخزاهم الله تعالى في الحياة الدنيا بالعذاب المهين. وبالتالي التحذير لقومه صلى الله عليه وسلم، ولكل من يقول بمثل ذلك القول، فينسب تحصل النعمة لكسبه وعلمه وحذقه وفهمه، دون إرجاعه إلى فضل الله تعالى.

وأنه بمثل ذلك سيصيب كل من كان على شاكلتهم ومنهجهم، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ والذين ظلموا بارتكابهم الظلم مثل من سبقهم ﴿ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ ﴾ أي: من قومك ومن غيرهم ﴿ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ ﴾ سيحصل لهم جزاء ﴿ سَيِّـَٔاتُ ﴾ أي: ذنوب ﴿ مَا كَسَبُواْ ﴾ أي: مما حَصَّلوه من الإثم الذي اكتسبوه واقترفوه بكفرهم واستكبارهم على الحق، فإنهم ضعفاء أمام قدرة الله تعالى ﴿ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ فكما لم نعجز عمن سبقهم فكذلك لا يعجزنا كل من ظلم. بما نسب من النعمة لنفسه، وبكفره وطغيانه وتعاليه على ربه جَلَّ جلاله. وبما يفيد التحذير المستمر من الطغيان والأشر ما بقيت الحياة إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، فإن الله تعالى بالمرصاد للطاغين.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى تقرير الرزق ومقداره بأنه لله سبحانه وتعالى ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ألم يتحقق لهم العلم بأن الله تعالى هو المدبر للأرزاق؟ فيوسع على من يشاء، ويقدره تقديراً محسوباً على من يشاء. فإن في ذلك البسط والتوزيع لعبرة وآيات لمن يؤمن بأن الله تعالى هو الرزاق الكريم.

وقد استهل التوجيه الكريم بتقرير شأن الرزق أنه بيده سبحانه وتعالى، فيبسطه كيف يشاء، ولمن يشاء، ويقدره تقديراً على من يشاء، وكيف يشاء عَزَّ وجل، وهو سؤال استنكار عن مسلك الغافلين الذين لا

يعلمون حقيقة عطاء وتوزيع الأرزاق، ومن يعتقد أن مرتكز الأرزاق هو الجهد الذاتي من الفرد فقط، دون أن تكون لله تعالى كمال الإرادة والتوفيق والتيسير.

فبدأ البيان الكريم باستثارة الفكر والتفكير بجملة استفهامية عظيمة ﴿ أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ ﴾ ألم يتحقق لهم العلم عن تدبير الأرزاق؟ بما يفيد السؤال عن سبب إغفالهم وغفلتهم عن التفكير في شأن تدبير الرزق، إذ يذهب البعض ويتعب، ولا يجد ربع ما يريد، وربما لا يحصل على شيء مما يريده، ويذهب الآخر فيجني ضعف ما كان يريد. فَمَن سَهَّل ودبر لهذا، ومن قتر على هذا؟ أليس هو الله سبحانه وتعالى؟ بتسهيل وترتيب الأسباب، وتفعيل تزامنها، بما يحقق بسطه أو تقديره.

فإن البيان الكريم يفيد السؤال لهم عن سرحان عقولهم عن النظر والتأمل بالبصيرة العاقلة، بما يحقق الاهتداء، وذلك بِسَوق الفكر إلى أن هذا الرزق هو بتدبير الرزاق الكريم، فهو الخالق المدبر عَزَّ وجل. أفلا يتأملون ويتدبرون فيعقلون؟ أولم يتعلموا وينتفعوا بنعمة التفكير التي أنعم الله تعالى بها عليهم؟ فلو استخدموها لفقهوا بها حقيقة الرزق. مما يفيد أهمية التفكر في تدبير الله تعالى، فإن التفكر يعيد العقل للصواب، ويتقوى به إيمان المؤمن، ويستدل به الكافر على أن الملك كله لله تعالى.

وجملة ﴿ أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ ﴾ هو استفهام توقف وتدبر، واستنكار على أنهم لم يعلموا، ليستدلوا بذلك على حقيقة الأرزاق وتوزيعها وقسمتها، فأين عقولهم عن هذا التسخير وهذا التدبير، الذي يرونه في أنفسهم وفي غيرهم؟ ويتعاملون معه في حياتهم، سواء عند البيع وعند الشراء، أو في غير ذلك من الصحة والعافية والجاه وكثرة الأولاد، وقلتهم، أو منع عطائهم. وقد تقدم النص الكريم أداة الاستفهام المثيرة للعلم ﴿ أَوَلَمۡ ﴾ التي أفادت لفت ذهن الْمُخَاطَب والمتعلم إلى المحسوس، ليستدل به على غيره من المحسوسات والمغيبات التي يتم إخباره عنها، وما يتعلق بها من المغيبات، وليرتقي بعقله في التحليل والاستنتاج. فهو استفهام استنكار وتعجب من جهلهم، وتغافلهم عن المحسوسات والحقائق الدالة على صدق ما يُخبَرُون به من المغيبات.

فيخبر الله تعالى عن حكمته في بسط الرزق وتوسعته لبعض الناس دون بعض، وتقتيره وتقليله لبعض الناس دون بعض ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ ﴾ فإن الله تبارك وتعالى هو الذي يوسع الرزق ويُكَثّره لمن يشاء ببسطه ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ فيكثره ويوسعه، وكذلك هو الذي يقلله ﴿وَيَقۡدِرُ ﴾ أي: يقلله ويقتره على من يشاء، سواء كانوا أفراداً أو جماعات، أو أمماً، فإن الأمر يخضع لمشيئته وحكمته سبحانه وتعالى، لينتفي بهذا النص الكريم ألفهم الخاطئ، من أن الرزق مُرتبط بحذق وفهم الإنسان فقط، أو برضى الله تعالى عن مَنْ بُسِط له الرزق، وعن غضبه وسخطه عَزَّ وجل على من قُدِرَ عليه رزقه.

فقد يوسع تبارك وتعالى على العاصي والكافر لحكمة أرادها الله تعالى، وقد يقتر ويقلل على المؤمن لحكمة يعلمها العزيز الحكيم، فليس لذلك علاقة بكرامة العبد ومنزلته في الآخرة، فلا يدل البسط على الكرامة، ولا يدل التقتير على الإهانة. وفي هذا ما يدل على أهمية إزالة الفهم الخاطئ في حال التعليم والإرشاد، والدعوة، وغيرها، من أجل إزالة ما يترتب على المفاهيم الخاطئة من شك أو ريبة، أو تصور خاطئ، أو اعتقاد مناف للحقيقة، مما يدل على عناية هذا الدين بالعقل وسلامته فكره، وتفكيره وتحليله واستنتاجه، وتصحيح القياس، والاستنتاج والاستنباط.

ثم يخبر اللهُ تبارك وتعالى بالحكمة من ذلك التقدير في الأرزاق ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إن في ذلك التوزيع للأرزاق بما أخبركم به ربكم ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ لدلائل وحجج وبراهين بأن الله تعالى هو الذي يبسط الرزق ويقدر. كما أنها ليست آية واحدة بل وردت بصيغة الجمع ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ لتفيد الكثرة والتنوع، وتعدد ما دلت عليه من الآيات، بما يثبت أنها أدلة كثيرة، ومتظافرة، ومتعاضدة، فيعضد بعضها بعضاً، بما لا يدع مجالاً للشك فيما أخبركم به ربكم سبحانه وتعالى. فإن ذلك التقدير منه سبحانه وتعالى ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ أي: براهين وأدلة وشواهد.

ثم خص بها سبحانه وتعالى من اتصفوا بالإيمان والتصديق بالحقائق التي لا يكابرون عليها ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وفي هذا بيان لنوع المستفيدين من هذه الآيات العظيمة التي تجاوزت الفرد، لتكون ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فمن قوة تأثيرها أن الذي يتعظ بها يتجاوز الأفراد إلى القوم الكثير العدد، الذين يؤمنون ويصدقون ببيان الله تعالى، ويعملون بمقتضاه. مما يبين قوة حجج آيات الله في توزيع الأرزاق. فالذين ينتفعون بها هم المصدقون بالحقائق والبراهين، فيؤمنوا بالحجج إذا قامت، ولا يقابلونها بالاستكبار، فالمصدق بالحق والحقائق إذا عرفها وأيقنها فإنه لا يكابر، بما يفيد أنها ممتنعة على المكابر الذي يتجاهل ويتعامى عن الحق بكبريائه وزهو نفسه، واستعلائه على الحق. مما يبين أهمية التواضع للحق، وتقديم الحق على الكبر والاستعلاء والشبهات والأهواء، ليكون من المؤمنين المصدقين بالحق. مما يفيد أن من صرف نفسه عن الحق فلن ينتفع به، وأما من أقبل وقَبِل الحق فإنه يتعظ بما فيه من الآيات والبراهين والدلائل، ويكون من المستفيدين والمنتفعين الموفقين من ربهم تبارك وتعالى.

﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا

تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾

ثم ينتقل السياق إلى بيان عظيم امتنان الله تعالى الرحمن الرحيم على من أسرف على نفسه بمعصية ربه، فإنه إن تاب وعاد إلى ربه، وعمل بطاعته، فإنه مُبَشَّر بالخير، وقبول توبته. فقال تبارك وتعالى ﴿ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ فيتوجه الخطاب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقول للذين تمادوا في المعاصي حتى بلغ بهم الشأن مبلغ المسرفين المتجاوزين: لا تيأسوا ولا تقنطوا من رحمة ربكم سبحانه وتعالى، نتيجة كثرة ذنوبكم وتعاظمها، فإن الله تعالى يمحو ذنوب من تاب واستقام على طاعته جَلَّ شأنه. وهذ من عظيم رحمته سبحانه وتعالى، بأن يقبل توبة التائب واستغفاره لربه سبحانه وتعالى.

فيتوجه الخطاب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بفعل الأمر ﴿ قُلۡ ﴾ أي: أخبر الناس أيها الرسول صلى الله عليه وسلم بأن ربكم يقول لكم ﴿ يَٰعِبَادِيَ ﴾ فيناديهم بأطيب النداء، باسم العبودية، وعلاقتهم به، بأنهم عباده. فأضافهم لنفسه عَزَّ وجل تشريفاً وتكريماً وترغيباً لهم في طاعته، وإبعاداً لهم عن المعصية وما يلحق بها من العذاب. فشرفهم سبحانه وتعالى ليبشرهم. وكذلك خاطبهم بياء النداء، الذي يحمل في دلالته لفة الانتباه، ووجوب إرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه وبيان، بما يفيد أخذه بعزم وأهمية وجدية، وكذلك تضمن تسمية الْمُخَاطَبين بصفة العبودية ﴿ يَٰعِبَادِيَ ﴾ ليخبرهم برحمته على من أسرف وتجاوز في المعصية ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ ﴾ الذين بالغوا فأسرفوا في ارتكاب الذنوب والمعاصي والسيئات، والاستكثار منها إلى حد المبالغة. وهنا لم يحدد فئة بعينها، ليشمل العصاة من المؤمنين وكذلك الكافرين، للعودة إلى ربهم، بإقلاع العاصي المؤمن عن معصيته، وإسلام الكافر ورجوعه عن كفره. قال ابن كثير رحمه الله تعالى:

هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة[١] فينبههم إلى عدم اليأس ﴿لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ﴾ لا تيأسوا من رحمة الله ومغفرته لكثرة ذنوبكم، ومبالغتكم في العصيان. فلا تجعلوا ما كان منكم من الذنوب سبباً لعدم العودة إلى ربكم الرحمن الرحيم. بما يفيد أن رحمة الله تعالى تسعكم بمغفرته لكم إذا تبتم ورجعتم لطاعة ربكم، واستغفرتم وأنبتم. مما يفيد أن الله تعالى رحيم، يغفر لمن تاب، ويمحو السيئات ويسترها، وأنه ما أراد لعباده إلا الخير لهم.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بكريم فضله، ويقرره لعباده بمغفرته لجميع الذنوب، فيقول عزَّ وجل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ إن ربكم الله يغفر جميع الذنوب بلا استثناء، فهو تعميم يشمل الكبائر كما يشمل الصغائر لمن تاب منها، ورجع عنها، وأصلح شأنه بطاعة الله تعالى. فإنها بشارة عظيمة، تستحث العاصي إلى التوبة، وتُصحح مساره في الحياة. ثم يزداد التأكيد ببيان صفاته المتعلقة بمغفرته ورحمته ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ إن ربكم هو الغفور لذنوب عباده، وأنه رحيم بهم، بما يفيد الترغيب والحث لعباده بأن يستغفروا ربهم، ويتوبوا إليه، فإن ربكم متصف بالرحمة من أن يعاقبهم على ذنوبهم بعد توبتهم منها، وندموا على ما كان منهم، وأقلعوا عن الذي تابوا منه. وإنها لنعمة عظيمة أن يغفر الله تعالى لمن تاب وأناب، ورحمة جليلة عظيمة أن يرحم عباده المؤمنين. فالحمد لله رب العالمين. اللهم اغفر لنا وارحمنا.

فجمعت الآية الكريمة بين الرحمة والمغفرة ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وفي هذا تطمين لهم بأسماء الله تعالى وصفاته المناسبة لحاجتهم ورجائهم. وفي ذلك ما يُعلم المسلم استحضار ما يوافق حال التائب والمستغفر من صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى. كما أن في المغفرة والرحمة ما يجعل العبد يطمع ولا يقنط، فالغفور اسم من أسماء الله تعالى الْحُسنَى المتضمن لصفة المغفرة. وهو من صيغ المبالغة، التي تفيد امتداد المغفرة إلى أقصاها وكمالها بمحوها وسترها. وكذلك الرحيم، هو الاسم المتضمن لصفة الرحمة، والدالة على كثرتها، والمبالغ فيها لجميع الخلائق منه سبحانه وتعالى. فنحمد الله تعالى على نعمة الرحمة والمغفرة.

ومن دقائق البيان أن اشتمل قوله تعالى ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ على التوكيد بحرف **(إن)** الملتصق بضمير الجلالة ﴿إِنَّهُۥ﴾ وأفاد الضمير ﴿هُوَ﴾ التوكيد والحصر للمغفرة والرحمة أنها له عَزَّ وجل، بما يفيد المبالغة في التوكيد، ثم تلاها المبالغة في المغفرة والرحمة، بما يبين عظيم رحمة الله تعالى بالعباد إذا استقاموا،

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٦٢/٤)

وأنه سبحانه وتعالى لا يريد من عباده إلا الطاعة بأن يعبدوه وفق ما شرع، لأن الحكمة من خلقهم هو لعبادته سبحانه وتعالى.

وبعد فتح باب الرجاء للمسرفين على أنفسهم، تلاه وأعقبه زيادة التوجيه بأن يعودوا لربهم، ويستسلموا له عَزَّ وجل، فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ فأرشدهم بالمزيد من التوبة ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ ﴾ أي توبوا إلى ربكم، بالرجوع إليه. وقد أفادت الإنابة ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ ﴾ الرجوع إلى الله تعالى، والإقلاع عن الذنب، والعزم على عدم العودة إليه، والأسف والندم على وقوعه، ورجاء مغفرة الله تعالى له. ثم عطف تبارك وتعالى على الإنابة الاستسلام له عَزَّ وجل ﴿ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ ﴾ وهو الانقياد لله تعالى ولرسول صلى الله عليه وسلم بالطاعة، فالاستسلام يفيد كمال الخضوع، وكمال الإئتمار بما أمر، والانتهاء عما نهى عنه سبحانه وتعالى.

ثم بعد تبشيرهم بالخير يخوفهم عَزَّ وجل من الشر والعاقبة السيئة لمن استكبر ولم يتب ويستسلم لربه جَلَّ جلاله، فقال تبارك وتعالى ﴿ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ فبادروا وسارعوا بالتوبة والانقياد لدين ربكم قبل أن يحل بكم العذاب ﴿ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ ثم لا تجدون من ينصركم بإنقاذكم من عذاب ربكم، بما يفيد إن وقع بكم العذاب، فلا مخرج لكم بأي حال من الأحوال، فجاء نفي النصر عاماً ليستوعب كل ما يجول في الخاطر من وسائل النصر، كالاتقاء من ذلك بالأماكن أو بالتوبة حين ذاك، أو بما يعبدون من الأصنام، أو ما يكون في أذهانهم من أي نوع من أنواع النصر. فهو بيان قطعي بانعدامه. وأنه إذا حل بساحتهم العذاب فلا وقاية لهم به منه. وفي هذا غاية الرحمة في الجمع للمسرفين على أنفسهم بالمعاصي وبالكفر بين الرحمة بقبول توبتهم، وبين التهديد لهم بالعقوبة الحاسمة. ونسأل الله تعالى العافية.

ثم يرشدهم تبارك وتعالى إلى المنهجية التي يبتعدون بها عن العذاب، ويحل لهم بها رضونه تبارك وتعالى، فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةً وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾ واتبعوا واقتفوا واسلكوا منهج أحسن ما أنزله الله تعالى إليكم وهو القرآن الكريم ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ مما يفيد أن أحسن ما أنزله الله تعالى على البشرية هو كتابه القرآن الكريم. وأفاد فعل الاتباع ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ ﴾ دقة الالتزام بما فيه، بأن تُحلوا حلاله، وتحرموا حرامه، فتتقيدوا بما فيه من تشريع ربكم. وأفادت دلالة ﴿ أَحۡسَنَ ﴾ التفضيل، لإفادة كمال الحسن

وأتمه، بأنه أفضل ما أنزل على البشرية، كما أفاد دلالة ﴿ أَحْسَنَ ﴾ كمال الْحُسن الذي استوفاه من كل وجه، فليس فيه شيء مما يُضاد الْحُسن. سواء في أحكامه، وتشريعه، أو في أخلاقه وآدابه، أو في قصصه ومواعظه، وترغيبه وترهيبه، أو بيانه وبلاغته وهدايته، أو في حروفه ومعانيه ودلالاته. وأفاد الإنزال للقرآن ﴿ مَآ أُنزِلَ ﴾ بأنه أتى من العلو، وهو من عند ربكم ﴿ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ لينتفي به أنه من قول البشر، ثم بين قوله تعالى ﴿ إِلَيْكُم ﴾ التخصيص والعناية بكم، فهو لكم وليس لغيركم، بأن أكرمكم الله تعالى بهذه الحظوة بأن خصكم بكتابه العظيم، بل وزاد من تعظيمه بقوله عَزَّ وجل ﴿ مِّن رَّبِّكُم ﴾ من ربكم الذي خلقكم وأغدق عليكم من النعم، فأتمها بدينه القويم العظيم، المتضمن لأحسن الحديث، وأحسن ما جاء للبشرية.

ومن الفوائد أن في وصفه بالحسن، ما يدل على أن دين الله تعالى كله على أحسن تشريع، كما يدل هذا الحسن أيضاً على حُسن سنته صلى الله عليه وسلم، لأنه عليه الصلاة والسلام كما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، قالت (كان خلقه القرآن)[١] وكما قال الله تعالى عنه صلى الله عليه وسلم في سورة القلم ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ فيشمل كمال المدح والثناء الرسول صلى الله عليه وسلم وسنته الشريفة، وجميع هديه وسيرته المباركة، وأنه على أحسن ما يكون عليه الإنسان من الكمال والتمام والحسن عليه الصلاة والسلام.

ثم بعد هذا الامتنان العظيم من رب العالمين، يحذرهم سبحانه وتعالى من عاقبة المعصية، وعدم الاتباع لكتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فيقول جَلَّ جلاله ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ اتبعوا كتاب ربكم القرآن العظيم بطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم قبل أن يحل عليكم العذاب، الذي ستكون هيئة وصوله إليكم ﴿ بَغْتَةً ﴾ أي: فجأة ﴿ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ وأنتم لا تشعرون بمقدماته، إلا وقد وقع بكم وأنتم غافلون عنه، فلا تشعرون إلا وقد وقع بكم فجأة، وذلك لشدته وسرعته. مما يبين أن الله تعالى ما خلق الخلق إلا لعبادته وطاعته، ولذلك أرسل المرسلين، وأنزل الكتب، وخاتمتهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بحجج عظيمة، وأعظمها القرآن الكريم، الذي تعهد الله تعالى بحفظه إلى أن يرفعه من الدنيا حين تقوم القيامة. فنحمد الله تعالى على نعمة القرآن والإسلام، ونعمة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، ونسأله أن يثبتنا على دينه، وأن ويوفقنا لطاعته عَزَّ وجل، وأن يُحسن خاتمتنا.

---

(١) أحمد، المسند، برقم (٢٥٨١٣)

ثم يذكر تبارك وتعالى أن علة وسبب النصح بطاعته، هو منعاً للندم يوم القيامة، عندما يعاين المفرط عذاب ربه، ويتمنى لو أنه لم يُفَرِّط في حقوق الله تعالى. فيخبر عَزَّ وجل بأن لهذا العبد ثلاث حالات: الحالة الأولى: قوله عَزَّ وجل عما سيقوله المفرط يوم القيامة ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴾ أي أن هذا التوجيه والبيان بالعاقبة من العذاب هو: لئلا تقول نفس من العباد يوم القيامة ﴿ يَٰحَسْرَتَىٰ ﴾ والتحسر يفيد قوة الاغتمام والندامة الشديدة على ما فات، والذي لا يمكن تداركه، فتقول يا ندامتي وويلي وأسفي ﴿ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ ﴾ أي: على ما ضيعت وقَصَّرت، وعلى ما فاتني ﴿ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ في أمر وشأن وحق الله تعالى من الطاعة والانقياد له عَزَّ وجل. ويفيد قوله تعالى ﴿ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ أنه تفريط عزيز، ليس له مثيل أبداً، وعاقبته بمثل ذلك ليس لها مثيل، فدلالة ﴿ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ تعني في حق الله تعالى، في جهة الله تعالى، ففي تعيين وتخصيص الخسارة والتحسر في جنب الله تعالى ما يفيد: علو المنزلة والمكانة التي لا يعادلها جناب ولا اتجاه، فالخسارة في كل جناب ليس كجناب حق الله تعالى، ففي التخصيص ارتفاع بمكانة الخسارة، التي أضاعها وفَوَّتَها، ولا يمكن تعويضها.

ثم يوزن الخاسر نفسه في الدنيا ومقدار خسارته في الآخرة، فيقول ﴿ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴾ لقد كنت من الفئة والجماعة الساخرة والمستهزئة، بل حصر وقصر شأنه في الدنيا بأنه لم يكن إلا من الساخرين المستهزئين بدين الله تعالى، وبالقرآن وبرسوله صلى الله عليه وسلم. فَيُثبت لنفسه ما كان منها، ويعترف بما كان عليه من الخطأ، ليثبت استحقاقه لما يناله من العذاب، ويضع اللائمة على نفسه، ليقرر به عدل الله تعالى عليه. وفي هذا بيان من الله تعالى لحالة النفس الزائغة عن دين الله تعالى، بأن حالها هو حال المشتعلة نفسه بالألم من شدة الحسرة التي لا يستطيع تداركها بأي حال من الأحوال، مما يفيد: وعظ العباد بحال وشأن من قصر في الدنيا بكيف يكون حاله في ذلك اليوم الشديد، وهو يوم القيامة، يوم الحساب والجزاء. ليفيد الإنذار والنصح للعباد، حتى لا يلوموا إلا أنفسهم.

والحالة الثانية التي يقولها المفرط يوم القيامة: هو ﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ فيزداد التحسر عند الخاسر، لينتقل إلى حالة التمني ﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى ﴾ ليت أن الله تعالى ﴿ هَدَىٰنِى ﴾ فلو حَصَلَت لي الهداية ﴿ لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ لكنت من الذين سَلِمُوا من هذا العقاب، واستحقوا الثواب، فأفادت ﴿ لَوْ ﴾ قوة التمني المتوافقة مع حجم الحسرة والندامة. قال

السعدي رحمه الله تعالى: و ﴿لَوۡ﴾ في هذا الموضع للتمني. أي: ليت أن الله هداني، فأكون متقياً له، فأسْلَمَ من العقاب، وأستحق الثواب، وليست ﴿لَوۡ﴾ شرطية، لأنها لو كانت شرطية، لكانوا محتجين بالقضاء والقدر على ضلالهم، وهي حجة باطلة، ويوم القيامة تضمحل كل حجة باطلة[1] مما يفيد اشتعال التمني الذي لا يمكن تحققه، وهو نوع من العذاب النفسي، مع العذاب الحسي.

والحالة الثالثة: هو تمنى المعالجة مما كان من الكفر، بأن يعيدهم الله تعالى إلى الدنيا بهدف تحصيل الطاعة، وأن تكون النفس على كمال الاستقامة ﴿أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أو تقول النفس من قوة التحسر وشدته ﴿حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ﴾ فيشتعل التمني في النفس لرؤيتها ومعاينتها العذاب ﴿لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾ ليت لي عودة للدنيا. فأفادت ﴿لَوۡ﴾ التمني مع الجزم من أنه تمني ميؤوس منه، فقد تم الفصل، ولا يمكن ذلك لأي نفس. وأن حصول اليأس هو بسبب رؤية الواقع والأمر الذي لا عودة عنه ﴿لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾ ولكن ليس هناك كرة، فهي أمنية مع الاعتراف بأنها لن تتحقق. والكرة هي الرجعة والعودة مرة أخرى، أي: إلى الدنيا. فتجزم بأنها ﴿فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ وفي هذا اعتراف بأنها لم تكن من المحسنين في الدنيا، وتجزم بأنه لو حصلت العودة لكانت ﴿مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ والمحسن هو: من يعبد الله تعالى كأنه يراه، فينعكس على شدة ملازمته لطاعة ربه تبارك وتعالى، فهو يستحضر مراقبة الله تعالى له في حياته، مما يجعله يُحسن الاعتقاد والعمل بفعل الخيرات من الطاعة لله تعالى، ومع العباد، وفي كل شأن من شؤون حياته.

مما يفيد أن هذا بلاغ عظيم من الله تعالى لحقيقة ما سيكون في الآخرة من حال المفرطين في طاعة الله تعالى حين يرون العذاب، ويشاهدونه عياناً، ليكون هذا البيان موعظة، وإنذاراً، وبياناً للحقائق قبل أن يعيشها الْمُخَاطَبُون في الآخرة. مما يبين رحمة الله تعالى بالعباد، إذ يُوقفهم على الحقائق وكأنهم يرونها ماثلة أمامهم، ويشاهدونها، ويعايشونها. فالحذر من الحسرة بلزوم طاعة الله تعالى قبل ساعة الندم.

ثم يأتي الرد والجواب من الله تعالى في ذلك اليوم، فيقول عزَّ وجل ﴿بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ليس الأمر كما تتحسرون عليه اليوم، فإن حرف

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٤/٣٣٣)

﴿ بَلَىٰ ﴾ يفيد إبطال ونفي ما سبق من أمنيات المتحسرين، والندم غير الحقيقي ﴿قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى ﴾ قد وصلتك حجج ربكم، وبراهينه مع المرسلين، واضحة وظاهرة جلية. وقد استهل البيان بحرف التأكيد والتحقيق ﴿قَدْ ﴾ الذي أفاد تحقق ما بعده من البيان، مع تأكيد ما رافق الحق من الإخبار والإعلام بهذا اليوم ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى ﴾ قد وصلتك رسالتي وما فيها من البراهين ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا ﴾ فقابلتها بالتكذيب، والإنكار ﴿وَٱسْتَكْبَرْتَ ﴾ وتعاليت عليها في أنفة واستكبار من أن تتقبلها، وتلزمها، بالرغم من كونها حجج وبراهين واضحة جلية ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ وكنتم في الدنيا مع فئة الكافرين المنكرين لرسالة ربكم، فحسرتكم وتمنياتكم اليوم ليست في مكانها.

وهذا غاية الإرشاد والنصح من الله تعالى بما بينه من مشاهد يوم القيام، الأمر الذي قامت به الحجة في الدنيا على كل نفس. مما يلزم اغتنام فرصة الحياة القصيرة، ولزوم طاعة الله تعالى، ليجد العبد الحياة التي لا تنتهي في الآخرة، وكل بحسب ما كان منه. ونسأل الله تعالى أن نكون من أهل الجنة، ومن رفقاء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ومن أهل القرآن، وحُسن الخاتمة، بفضله وكرمه سبحانه وتعالى، إن الله غفور رحيم.

﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

ويستمر الإخبار من الله تعالى عن يوم القيامة، وبما سيكون عليه حال الذين كَذَبُوا عليه. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ ففي يوم القيامة ترى أيها الرسول صلى الله عليه وسلم، وأيها الْمُخَاطَب أولئك الذين افتروا على ربهم الكذب، فإنك ترى وجوههم مسودة، لِمَا أحاط بهم من سوء الحال في ذلك اليوم، وبما يشاهدونه من غضب الله تعالى وسخطه عليهم. وقد ورد كذبهم على الله تعالى عاماً ﴿تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ ليشمل الافتراء بأنواعه، فهناك من افترى على الله الولد، ومن افترى على الله البنات، وهناك من افترى

الشركاء له سبحانه وتعالى، ومن شرع في الدين مالم ينزله سبحانه وتعالى، وغيره من أنواع الافتراءات التي لا تليق بربنا جَلَّ جلاله. وأفاد سواد الوجه ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ تغير لون الوجه، وشحوبه، وتقلصه، فاسود اللون من سوء ما يراه من نقمة الله تعالى عليهم، وغضبه وسخطه عَزَّ وجل، ومآلهم الذي سيكونون فيه من النار وسوء المصير.

ثم يبين ويؤكد سبحانه وتعالى علة اسوداد وجوه هؤلاء المفترين على ربهم الكذب، فيقول عَزَّ وجل ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ فقد رأوا شدة العذاب الذي اسودت وجوههم من هوله. وهو سؤال تقريري، يجيب على علة سواد وجوههم بأن في جهنم مثوى لكل متكبر عن طاعة الله تعالى، ووصفهم بالكبر لأن المفترين على الله تعالى الكذب قد استكبروا عن قبول الحق، واستمروا على كفرهم وأقوالهم من الافتراءات الباطلة. فاستوعبهم البيان واستوعب كل من امتنع عن دين الله تعالى، فما امتنع أحد إلا وهو مستكبر ومتعالي بما هو عليه من الباطل على ما عرفه من الحق في دين الله تعالى. فَيُظهر المستكبر التعاظم على الحق، بما يكون في نفسه من التعالي من أن يقبل الحق، ويترك ما هو عليه من الباطل. مما يبين أثر الكبر وخطره على النفس، إذ يمنعها من قبول الحق أمام الاستعلاء بما هو عليه من الرأي، والفكر والاتجاه، والقصور، ومحبة الباطل، ليفيد التحذير من الانصياع للكبر والحسد، ومحبة الشهوات، فإنه المانع عن كل خير بجميع درجاته وأنواعه.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن رحمته وكرمه بالذين اتقوه في الدنيا، فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ فإن ربكم سبحانه وتعالى يُبعِد عن النار الذين اتقوى ربهم في الدنيا، بإنجائهم من العذاب. مما يفيد عظمة وعظيم شأن التقوى، فإنها تجعل المتقي ينصاع لطاعة الله تبارك وتعالى في الحياة الدنيا، فيكون حال المتقين في الدنيا والآخرة مضاد لحال الكافرين، وأن التقوى مضادة للكبر، وثمرتها مضادة لنتائج الكبر.

ثم يذكر تبارك وتعالى بما فاز به المتقون ﴿ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ ﴾ فقد نالوا بالتقوى الفوز، ففازوا في الآخرة بحصولهم على أمرين: الأول: أنه ﴿ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ ﴾ لا يصل إليهم ما يسوء، ولو مجرد الملامسة من أي نوع من أنواع السوء، ليفيد تحقق المقابل لذلك وهو السعادة، بما أصابهم من الخير، وهو الفوز بالجنة. والأمر الثاني: ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ولا يتحسرون على شيء قد فاتهم من الدنيا، كما يتحسر أهل النار. فليس هناك ما يستدعي من الأمر والموقف أن يقولوا: يا ليتنا عملنا بكذا وكذا، مما يفيد أنهم تحصلوا على كمال الثواب والجزاء بما لا يستدعي التحسر على شيء لم يفعلوه أو قَصَّرُوا فيه، أو شيء تركوه

من متاع الدنيا. مما يعني كمال السعادة. وهذا بعكس حال الكافر الذي يتحسر ويتمنى لو عمل في الدنيا، ويتمنى لو يعيده الله تعالى إلى الدنيا ليعمل صالحاً كما ورد عن حالهم فيما سبق من الآيات الكريمة. فامتناع السوء والحزن عنهم، لفوزهم بالجنة، وتحقيق أمنياتهم التي كانوا يتقون الله تعالى من أجل تحقيقها، وهي صرف العذاب عنهم، ودخولهم الجنة.

وهذا البيان من الله تعالى موعظة جليلة للكافرين وللمتقين، فهي للمتقين بيان لحالهم، وما سيكونون عليه يوم القيامة، فيلزمهم ملازمة التقوى، والعلم بأن تقوى الله تعالى هي مركز الفوز والنجاة وأساسه، وكذلك هي موعظة للكافرين بمآلهم، وما سيكونون عليه من العذاب وسُوء الحال، فعليهم أن يصححوا من حالهم في الدنيا، قبل أن يكون المصير المخزي لهم يوم القيامة، وأن عليهم أن يتأسوا بالمتقين. فإن المتقين خير قدوة وأسوة في الدنيا.

ثم يخبر تبارك وتعالى بأنه مالك الملك، وأنه المتصرف في الكون كله بما يريد ويشاء، بما يثبت كمال القدرة والسلطان له عَزَّ وجل. وتأكيد ما سبق من البيان عن يوم القيامة وأحوال الكافرين والمؤمنين، فيقول عَزَّ وجل ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴾ الله ربكم هو الخالق لكل شيء، وبالتالي له كل التصرف وكماله وفق ما يشاء جَلَّ جلاله. وهو تقرير بكمال الملكية وكمال الإرادة والمشيئة، والكيفية التي يراها ويريدها سبحانه وتعالى ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴾ فجميع الأشياء بلا استثناء راجعة ومُوكلة إليه تبارك وتعالى. ودلالة الوكيل تفيد أن كل الأشياء موكلة إليه عَزَّ وجل، فله كمال التصرف بما يشاء. وبالتالي فإن ربكم له كمال التصرف على جميع وكل ما خلق. مما يُثبت به البعث والنشور، والحساب والجزاء، والجنة والنار. وربكم حفيظ ومحيط بكل الأشياء، فلا يخرج شيء عن قدرته وعلمه ومشيئته وسلطانه وقهره.

ثم يؤكد ذلك سبحانه وتعالى بالمزيد من تقرير كمال الملكية، فيقول عَزَّ وجل ﴿ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ فله وحده لا شريك له ﴿ مَقَالِيدُ ﴾ أي: المفاتيح، مفاتيح خزائن ﴿ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ فيعطي ويقدر ما يشاء، ويمنع ما يشاء سبحانه وتعالى.

فبعد هذا البيان الذي يملأ الله تعالى به القلوب إيماناً وتسليماً وخشوعاً وإجلالاً له عَزَّ وجل يبين حال الكافرين ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ وأما الذين كفروا بحجج الله تعالى، وما جاءهم به من الحق ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ فإن هؤلاء هم الذين تحققت لهم كمال الخسارة، فَحُصِر كمال الخسارة فيهم. فقد اشتروا النار، بمنازل الجنان، واستعاضوا عن منازل أهل الجنة بالخلود في النار،

وبالتالي تحققت فيهم كمال الخسارة، فأصبحوا هم الخاسرون حقاً. وقد أشار تبارك وتعالى إلى الخاسرين باسم الإشارة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ التي أفادت لفت الانتباه لهم بالخسران. فحقيقة هؤلاء وأعمالهم أنهم قد تمكنوا من تحقيق الخسارة الفادحة لأنفسهم في الدنيا من عدم التوفيق، وفي الآخرة من عذاب جهنم، التي يقيمون فيها إقامة دائمة، فلا ينفكون عنها.

ثم بعد بيان حال المؤمنين وحال المكذبين، يأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يخاطب المشركين بقوله عزَّ وجل ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾ أبعد كل هذا البيان بالحقائق تدعونني وتأمرونني وتطلبون مني أن أعبد غير الله سبحانه وتعالى ﴿ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾ يا من أصبح الجهل وصفاً لكم. فإن هذا الطلب منكم دليل على كمال جهلكم، وتماديكم في الباطل، ورفضكم للحق. فهل تريدون مني أن أعبد شيئاً ليس له من الملك والقدرة شيئاً، وأترك من له مقاليد السماوات والأرض؟ أين عقولكم؟ فلا يقول بهذا إلا من تركز وتمحور الجهل في نفسه، بتركه الحق، وذهابه للباطل. فهو تدرج في البيان المتسلسل الذي أقام الله تعالى به الحجة على كل من كفر، وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبلغه لهم. مما يفيد أن دين الله تعال قائم على الحجج والبراهين، وليس على إثارة العواطف بالكذب، بل بالحقائق والبراهين الدامغة. بل ومن مميزات بيانه سبحانه وتعالى في كتابه القرآن العظيم أنه يفتح العقل والذهن، ويعلم الإنسان كيف يقبل الحق، وكيف يرفض الباطل. ويبين الباطل ويظهره بأدق البيان، ويظهر الحق بأدق البيان من الأدلة والبراهين والحجج. فنحمد الله تعالى على نعمة هذا الدين، ونسأله أن يوفقنا لطاعته، ويجعلنا من الفائزين يوم القيامة بجناته، وبفضله ورحمته وتوفيقه وإحسانه.

﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾
بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ
فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ
﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ
وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

ينتقل البيان الكريم إلى تعظيم وتهويل أمر الشرك من خلال التحذير الشديد للعباد منه، إلى درجة أنه لو حصل من المرسلين عموماً أو من الْمُرسَل إليكم لحبطة أعمالهم، فكيف بمن هم دونهم من العباد ﴿ وَلَقَدْ

﴿أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ يحذر الله تعالى العباد من الشرك، وأنه يحبط عمل العبد مهما كانت منزلته، وذلك بأسلوب التعظيم والتهويل لمعصية الشرك، إذ توجه الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم بالإخبار بما كان من الله تعالى له ولجميع للمرسلين من قبله ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ﴾ فبدأ البيان بحرف التحقيق الذي تقدمه لام القسم ﴿وَلَقَدۡ﴾ تأكيداً لما تم إيحاؤه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وكذلك لمن سبقه من الأنبياء ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾ أي: لجميع المرسلين من قبلك. فإنه تم الإيحاء للجميع، وهو الإعلام من الله تعالى بواسطة الملك جبريل عليهم جميعاً الصلاة والسلام، وأن مضمون هذا الإيحاء هو ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ فلو حصل منك ومن الأنبياء من قبلك الشرك ﴿لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ لبطل وفسد عملك، فذهب كأنك لم تعمل شيئاً من الصلاح والطاعة بسبب الشرك. ثم يتبع ذلك ما يقابل حبوط العمل، وهو ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ وليتحققن لك كمال الخسارة التي أضاعت جميع أعمالك الصالحة، فتخسر الدنيا، وتخسر الآخرة وما فيها من الجنات والنعيم المقيم. مما يفيد أن العمل مهما كان صالحاً فإن الشرك يفسده ويبطله. فإذا كان هذا التوجيه للنبي صلى الله عليه وسلم على عظيم مقامه عند ربه تبارك وتعالى، فإنه أولى بالمؤمنين أن يحفظوا دينهم، وينتبهوا لأمر الشرك، ويحذروا منه. وأن على المشركين ترك شركهم وتوحيد ربهم بالطاعة والامتثال لرسوله صلى الله عليه وسلم، وما معه من الحق.

وفي توجيه الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، وبأنه أوحي لجميع من قبله من الأنبياء ما يفيد تعظيم خطر الشرك إلى حد ودرجة أن الله تعالى أنذر به المرسلين جميعاً، وهددهم بحبوط أعمالهم الصالحة، وتحقق الخسارة لهم، وذلك لإفادة تهويل أمر الشرك والتحذير منه. وأن كان الأنبياء جميعاً أبعد ما يكونون عن الشرك. إلا انه تعظيم لخطره، وتهويل لكل مشرك، بفساد شركه لأعماله. فلا يمكن أن يشرك عليه الصلاة والسلام، وهو الموحد لربه تبارك وتعالى قبل نبوته وبعثته صلى الله عليه وسلم، ولكن ليكون ذلك من باب التحذير للمؤمنين. فإذا كان ذلك في حق النبي صلى الله عليه وسلم على جلالة قدره ورفعة منزلته صلى الله عليه وسلم، فكيف بمن هم دونه. ففي هذا رفع لمقام وقوة التحذير والتهويل، ليكون تنبيهاً قوياً بأقوى الدلالات. وليكون ذلك التحذير أكثر أثراً على المؤمنين وغيرهم، فإذا كان هذا التحذير بالوعيد للنبي صلى الله عليه وسلم بالخسران وهو صاحب المنزلة الرفيعة والمكانة العالية عند ربه تبارك وتعالى، وحاشاه أن يكون منه ذلك، فكيف بمن هم دونه؟ مما يفيد قوة التحذير وشدته، مع التنبيه لخطر الشرك.

وبعد أن بين وأظهر سبحانه وتعالى شناعة الشرك في أقوى بيان، وما كان من دعوة المشركين الذين طلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يعبد الأصنام معهم، يُجِيب ويرد الله تعالى عليهم بما يجب ويلزم أن

يكون عليه الرسول صلى الله عليه وسلم. فقال عَزَّ وجل ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ بل عليك لزوم الإخلاص أنت ومن معك من المؤمنين بعبادة لله تعالى وحده لا شريك له ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ ﴾ بل عليك بعبادة ربك وحده لا شريك له، فالزم هذا الأمر ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ وكن من الشاكرين لله تعالى على توفيقه، بأن هداك للتوحيد والإيمان. وكن واحداً ممن شكروا ويشكرون الله تعالى، وهم الذين لا يشركون مع الله تعالى أحداً.

وبدأ البيان الكريم بإبطال الشرك بلفظة ﴿ بَلِ ﴾ وهو الإبطال القطعي، بما يؤكد نفيه وإبطاله، وإثبات وجوب ما بعده، وهو ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ فقصر العبادة عليه سبحانه وتعالى، بما يفيد نفي كل عبادة لغيره عَزَّ وجل، وذلك من خلال مبنى السياق، وتراكيب الكلام، حيث قدم سبحانه وتعالى لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ ﴾ على فعل الأمر ﴿فَٱعۡبُدۡ ﴾ ليفيد حصر وقصر عبادتك أيها النبي على الله تعالى وحده لا شريك له. كما أن في جملة ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ من الفوائد: أنها وردت بصيغة الأمر ﴿وَكُن ﴾ لإفادة الوجوب، كما افاد حرف ﴿مِّنَ ﴾ التبعيض، أي: أن هناك شاكرين، فكن واحداً من ضمنهم. وأفادت دلالة ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ الجمع، بما يفيد تعددهم وكثرتهم. فهناك شاكرين، فكن واحداً منهم أيها الرسول صلى الله عليه وسلم، وهم الأنبياء السابقين والمؤمنون عموماً، مما يفيد الاعتضاد بالجماعة المحقة، والامتثال بهم ومعهم، والتأسي بهم. ويفيد الأمر بالشكر اقتضاء الامتثال، لأن الشكر يكون اعتقاداً بالقلب، وتلفظاً ونطقاً باللسان، وعملاً بالطاعة والامتثال. فشمل الشكر الحمد لله تعالى والثناء عليه، والامتثال اعتقاداً وعملاً بالطاعة.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى كشف وبيان حال المشركين مع ربهم سبحانه وتعالى بالرغم من ظهور شواهد قوته وعظيم قدرته جَلَّ جلاله ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ فإن المشركين والكفار عموماً ما عَظَّمُوا الله تعالى حق تعظيمه الذي يستحقه، ويجب عليهم تجاه ربهم عَزَّ وجل ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ ﴾ بل عملوا بما يناقض التعظيم والتبجيل الذي لا يتوافق مع عظيم قدرته العظيمة سبحانه وتعالى، حيث أن الأرض على سعتها وعظمة جرمها هي قبضته سبحانه وتعالى يوم القيامة ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا

﴿قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ وأن السماوات على سعتها مطويات بيمينه سبحانه وتعالى ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ فتنزه الله تعالى عما يَدَّعِيه المشركون من الشراكة لمعبوداتهم مع الله تعالى في توحيده وإفراده بالعبادة ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ فتنزه الله تبارك وتعالى عما يشركه المشركون مع ربهم عَزَّ وجل. فإن مَن ساوى بين عظمته جَلَّ جلاله وبين غيره من المخلوقات فإنه لم ينزه ولم يُقَدِّر ويُعَظِّم ربه التعظيم الذي يليق به جَلَّ في علاه.

ثم ينتقل التخويف للعباد من بيان عظمته جَلَّ جلاله إلى تخويفهم بيوم القيامة، فقال تعالى ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾ ونفخ في الصور التي هي النفخة الأولى ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ وهو قرن عظيم، ينفخ فيه الملك إسرافيل عليه السلام ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فيصعق. أي: يموت جميع من في السماوات والأرض ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ممن ثبته الله تعالى عند النفخة، فلم يصعق، فبقي على ما هو عليه من الحياة. قيل أنهم: جبريل وميكائيل، وإسرافيل، ومَلَك الموت[1] ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ﴾ وهي النفخة الثانية، نفخة البعث ﴿فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾ فيقومون من قبورهم لحسابهم، وهم في كامل صورتهم التي كانوا عليه في الدنيا، حيث يُعيد الله تعالى أجسامهم، وأرواحهم ﴿فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾ فإذا بهم يشاهدون مشهد يوم القيامة، يوم البعث والنشور والحساب، ليأخذ كل واحد من العباد جزاءه.

بما يفيد أن هذه الحال التي سيكون عليها العباد، والدالة على عظمة ربكم أيها العباد، ومع هذا تشركون معه المخلوق الضعيف العاجز. فأين عقولكم؟ فإنها موعظة جليلة من الله سبحانه وتعالى، يصحح بها أفهام العباد الضالين عن الحق الظاهر المبين. مما يبين أن حجة الله تعالى قد ظهرت للجميع، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل فإنما يضل على نفسه.

ثم يخبر الله تعالى عن تغير الأحوال يوم القيامة، فيقول عَزَّ وجل ﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ فأضاءت الأرض

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٠/٢٥٤)

كلها يوم القيامة بنور ربها ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ إذا تجلى تبارك وتعالى للخلائق، لفصل القضاء ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ أي: كتاب الأعمال ﴿ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ فيشهدون على الأمم، بأنهم بلغوهم رسالات الله إليهم ﴿ وَٱلشُّهَدَآءِ ﴾ أي: الشهداء من الملائكة الحفظة على أعمال العباد، من خير وشر ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ أي: فصل وحكم الله تعالى بالعدل بينهم، فلا ظُلم فيه البتة ابداً. ثم يؤكد الله تعالى ذلك بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ أي: لا يُزاد عليهم بذنب، ولا يُنقص من أعمال المؤمنين الطيبة بأي شيء، فلا يزيد في عذاب من يستحق العذاب، ولا يُنقص من ثواب أهل الثواب شيئاً. ليستوفي كل أحد حقه وافياً كاملاً، فلا يُزاد ولا يُنقص من أعمالهم شيئاً. وهذا من عظيم عدل الله سبحانه وتعالى.

ثم يبين عَزَّ وجل النتيجة ويقررها، بأنها على أكمل التمام والكمال والاستيفاء لكل نفس بما تستحق ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ فيوفي الله تعالى لكل أحد من عباده ما يستحق من خير أو شر، ثم يؤكد عَزَّ وجل ذلك بالتنويه عن علمه الدقيق بما كان منهم ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ فربكم سبحانه وتعالى هو الأعلم بما كانوا يفعلون في الدنيا من الطاعة، ومن المعصية، فلا حاجة له بمن يعلمه، ولا إلى النبيين ليشهدوا، ولا إلى الشهداء من الملائكة أن يشهدوا على العباد. ولكن كل ذلك لتكتمل الحجة وفق حكمته، ومقتضيات عدله، وما قرره سبحانه وتعالى من استيفاء القضاء بالعدل والشهود. فلا يظلم ربكم أحداً من العباد أبداً.

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

وبعد أن ذكر تبارك وتعالى حسابه لعباده وحكمه بينهم وفيهم يوم الحشر، ينتقل السياق الكريم إلى بيان التفرقة وعدم المماثلة بين عباده في الآخرة، فكما أنهم افترقوا في الدنيا إلى فريق كافر وفريق مؤمن، فإنهم يفترقون في الآخرة إلى فريقين من أجل الجزاء، ففريق في الجنة وفريق في السعير. فبدأ عَزَّ وجل ببيان حال الكافرين يوم يسوقهم ويحشرهم إلى نار جهنم يوم القيامة ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ وقد بدأ البيان المهيب بهيئة دخول الكافرين النار ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ والسوق هو الدفع، والمراد به هنا الدفع بقوة وشدة للكافرين الذين أنكروا حجج الله تعالى، وكذبوا المرسلين، وبما نزل من الكتب والحق من الله تعالى ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ ودفعوا إلى جهنم ﴿زُمَرًا﴾ أي: جماعات متفرقة. أي: أفواجاً بعضها يتلوا بعضا، أي: بعضها في أثر بعض، فيتبع بعضها بعضا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾ حتى إذا وصلوا نار جهنم ﴿فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ أي: تم فتح أبواب جهنم أمامهم سريعاً، لإفادة تعجيل العقوبة، أعاذنا الله وجميع المسلمين منها. مما يفيد أن أبواب جهنم كانت مغلقة قبل مجيئهم.

ويتوجه خزنة جهنم بتوجيه السؤال لهم، عن سبب مجيئهم إلى جهنم وقد جاءتهم رُسُل الله تعالى بالحق، وينذرونهم بما للعصاة من العذاب ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا﴾ وهو سؤال استغراب من عدم الطاعة والامتثال بالرغم من مجيء الرُّسُل، وهو كذلك تقريع وتوبيخ على تمنعهم وتكبرهم على الحق ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ﴾ وسألهم خزنة جهنم من الملائكة الغلاظ الشداد عن كيف مجيئهم لجهنم جزاء لهم، وقد جاءهم المرسلون بالحجج والبراهين، مُنذرين لهم من جهنم، فهو سؤال استغراب وتوبيخ ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ ألم يُرسل الله تعالى لكم رُسُلاً ﴿مِّنكُمۡ﴾ من جنسكم من البشر، تعرفونهم، وتعرفون كلامهم، وما يقولونه لكم، بما يفيد انتفاء وسيلة الغرابة في المرسلين الذين أرسلهم الله تعالى إليهم، ومزودين بما معهم من الحجج والبراهين ﴿يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ﴾ يقرؤون عليكم آيات الكتب التي أنزلها ربكم عليكم، بما تضمنت من الحجج والبراهين ﴿وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا﴾ وينذرونكم بالتحذير من هذا اليوم، الذي هو يوم القيامة، وما فيه

من الحساب والجزاء، والجنة والنار. فما الذي دفعكم أن تكذبوهم، وتعملوا بمعصية الله تعالى حتى يكون هذا مصيركم. فما الذي منعكم من الطاعة، وما الذي دفعكم للكفر. سؤال توبيخ وتحسر للكافرين.

فأجابوا بإثبات مجيء الرسل إليهم ﴿ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ أي: قد جاءتنا الرُّسُل، ومعهم الكتب والحجج والبراهين، وحَذَّرُونَا من هذا اليوم ﴿ وَلَـٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ ولكن تحققت فينا ﴿ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ لأننا كنا من الكافرين الذين كذبوا بالمرسلين وبما معهم من الحق. فاعترف أهل النار بالحق، وبما كان منهم من الكفر، بما يفيد إقرارهم بأنهم أهل لهذا المصير من العذاب المهين. فقد وجبت كلمة الله تعالى بأن عذابه واقع لا محالة لمن كفر به. فبسبب كفرهم وجب عليهم العذاب.

وفي هذا البيان من مشهد أهل النار موعظة، وحجة على الأحياء في كل زمان ومكان، بأن المشهد واضح لكم، قد أوضحه الله تعالى وكأنهم يشاهدون ويعاينون الأمر أمامهم. مما يفيد أن من كفر فقد كفر بعد إقامة الحجة عليه، وأنه قدم شهواته وشبهاته واستكباره على الحق الواضح المبين. ليتأكد أن الله تعالى رؤوف رحيم بعباده، إذ يحذرهم، ويبين لهم الحق، والطريق المستقيم، وسُبُل النجاة، ولكن الاستكبار والعناد هو طريق وسبيل من كفر. فاللهم أجرنا من النار، وأحسن خاتمتنا بمنك وكرمك وفضلك يا رب العالمين، وأدخلنا الجنة بغير حساب ولا عذاب. واجعل قبورنا روضة من رياض الجنة يا رب العالمين.

وبعد أن فُتحت أبواب جهنم أمام هؤلاء الكفرة ﴿ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ فقيل لهؤلاء الكفرة ﴿ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ ﴾ ادخلوا مع هذه الأبواب لجهنم ﴿ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ ماكثين في نار جهنم، لا تخرجون منها أبداً، فهو دخول خُلد لا مخرج منه أبداً، ولا يُفتَّر ولا ينقص عنهم العذاب لحظة واحدة ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ فبئس المكوث، وبئس المنزل للمتكبرين عن طاعة الله تعالى، وعن الاستجابة لما جاء به المرسلون من ربهم جَلَّ جلاله.

ومن دقائق البيان أن دلالة كلمة ﴿ فَبِئْسَ ﴾ تفيد استيفاء معاني الذم إلى أقصاه وأكمله وأتمه. كما أن القول لهم بذلك قد ورد عاماً دون ذكر القائل لهم، بتحديده وتعيينه ﴿ قِيلَ ﴾ لتعظيم كثرة القائلين لهم، وشدة وقع القول عليهم، وما ينتج عنهم من الألم النفسي والحسرة والندامة، لكثرة الذم وقوته. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: كل من رآهم، وعَلِم حالهم يشهد عليهم بأنهم مستحقون للعذاب، ولهذا لم يسند هذا القول إلى قائل

معين، بل أطلقه، ليدل على أن الكون شاهد عليهم بأنهم يستحقون ما هم فيه بما حكم العدل الخبير عليهم به سبحانه وتعالى[١] مما يدل على قوة ما يلاقونه من التشنيع، ليتحقق فيهم أنواع العذاب الحسي والنفسي.

وقد تم وصفهم بما كان منهم في الدنيا ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ فالكبر كان صفتكم في الدنيا، فأوقعكم فيما أنتم فيه من العذاب، فلم يدفع عنكم شيئاً من عذاب الله عَزَّ وجل. مما يفيد خطورة الكبر، وشناعته، وأنه المانع من الخير، بما يوضح ويبين قيمة ومنزلة التواضع وأهميته في أخلاق الإنسان وجميع تصرفاته وسلوكه، لأنه يحجب العبد في الحق والأخذ به. مما يُوجب أهمية معالجة الكبر عندما يجده الإنسان في نفسه.

ثم يتجه الخطاب البياني من الله تعالى إلى بيان حال أهل الإيمان المتقين، الذين اتقوا الله تعالى، فاتبعوا المرسلين على مر الأزمان، فقال تعالى عنهم ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ وقد بدأ البيان بهيئة دخول المتقين الجنة، بأنه تم سوق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة جماعات إثر جماعات، متتالية إلى الجنة. وأفادت دلالة ﴿وَسِيقَ﴾ على أنه الأخذ بهؤلاء المؤمنين على سبيل التكريم والعناية، فموقعها من السياق جعل دلالتها تختلف عن سوق المجرمين، لأن هؤلاء قد وُصِفُوا بالمتقين لربهم ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾ أي: أُخذ الذين كان حالهم في الدنيا مخافة الله تعالى، مما جعلهم طائعين لربهم، ومنقادين للرسل، ومتمسكين بالكتب، وممتنعين عَمَّا نهى الله تعالى عنه، أُخِذُوا ﴿إِلَى ٱلْجَنَّةِ﴾ فكان اتجاههم نحو الجنة، وهم جماعات ﴿زُمَرًا﴾ وفوداً متتالية، ومتعاقبة، يتلوا بعضهم بعضا، بحسب منازلهم. حتى إذا وصلوا ﴿إِلَى ٱلْجَنَّةِ﴾ تم استقبالهم بأبوابها المفتوحة ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ أي: مُفَتَّحة لهم أبواب الجنة ترحيباً وعناية بهم. وأفادت الواو في فتح أبوابها ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ أن الأبواب كانت مفتوحة لهم قبل أن يأتوا إليها، فهي واو الحال، المعبرة عن أن حال أبواب الجنة مُفَتَّحة لهم. فهي مشرعة لهم، بينما النار كانت أبوابها مغلقة، فورد بيان الفتح لها من غير حرف الواو، ليفيد فتحها حين دخولها، لِتُغلق عليهم بعد دخولهم، بينما الجنة مُفَتَّحة لهم الأبواب.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٧١/٤)

وبعد أن وصلوا الجنة التي كانت أبوابها مُفَتَّحَة، استقبلتهم الملائكة في ترحيب وعناية بهم ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ أي: الملائكة الموكلون بشأن الجنة وأهلها، يقولون محيين ومرحبين بأهل الجنة ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أي: الأمن والسلامة عليكم أهل الجنة من كل سوء وآفة، بما يفيد عليكم الأمن والسلامة في مأواكم الجنة، معللين ذلك ﴿ طِبْتُمْ ﴾ طابت أحوالكم في الجنة، وطابت أعمالكم وأقوالكم، وطاب سعيكم فطاب جزاؤكم ﴿ فَٱدْخُلُوهَا ﴾ فادخلوا الجنة طيبين سالمين آمنين، ومُنَعَّمِين ﴿ خَٰلِدِينَ ﴾ ماكثين فيها أبداً، دائماً، لا خروج منها أبداً، فأنتم بهذا النعيم المقيم الذي لا يزول ولا يحول ولا يتغير مقيمون إقامة أبدية، وفي نعيم لا يزول ولا ينقص منه شيء أبداً.

ثم يخبر الله تعالى بما يقوله أهل الجنة عندما يرون الجنة، وترحيب الملائكة بهم، فيقول عَزَّ وجل عنهم ﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ فيبدأ كلام أهل الجنة بالحمد والثناء والشكر لله تعالى ﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ ﴾ أي: بما وعد من البعث بعد الموت، والحساب والجزاء، فأوفانا كمال الجزاء بدخول الجنة ﴿ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ ﴾ فجعلنا نرث أرض الجنة، فكأنها صارت لهم بمنزلة الميراث، لم يتعبوا في تحصيلها غير طاعتهم لربها، مما يبين أن جميع ما يعمله المؤمن في الدنيا من الطاعة لا يساوي شيئاً من أثمان الحصول على الجنة، ومن سعة أرضها ﴿ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ﴾ نتنقل ونتزل في الجنة حيث ما نشاء من الأماكن والمنازل، مما يفيد سعتها وكثرة أرجائها وتنوعها، فنذهب ونتزل في أي مكان نريده ونشاء، لسعتها وتنوع ما فيها، وجمال وجميل وأطايب ما حوته من الخير والنعيم المقيم. ثم يزداد ثناؤهم ﴿ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ فنعم ثواب المحسنين الذين اجتهدوا في طاعة ربهم تبارك وتعالى، فمدحوا الطاعة وثوابها بأبلغ عبارات ومعاني ودلالات المدح. لأن ﴿ فَنِعْمَ ﴾ تفيد غاية المدح وأكمله. والممدوح هو ﴿ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ ومعنى ﴿ أَجْرُ ﴾ أي: ثواب ﴿ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ الذين اجتهدوا في طاعة ربهم في الدنيا، فحقق الله تعالى لهم عظيم الأجر، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ثم ينتقل البيان إلى هيئة عرش الرحمن وعظمته، فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فيخاطب الله

سبحانه وتعالى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ﴿وَتَرَى﴾ وترى وتشاهد أيها الرسول ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ محيطين بالعرش ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: يمجدون وينزهون ويعظمون ويقدسون ربهم عَزَّ وجل بالتسبيح والتحميد بما يليق به عَزَّ وجل من الأذكار والمحامد التي لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى.

ثم يبين تبارك وتعالى خاتمة يوم القيامة ونهايته ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ وقد فصل سبحانه وتعالى في شأن الخلائق، وحكم بالعدل جَلَّ شأنه، فَقُضي الأمر بين الخلائق بكمال عدل الله عَزَّ وجل ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فَخُتِمت خاتمة ونهاية القضاء بين الخلائق بالشكر، أي: وخُتِم الأمر والشأن بالحمد والثناء لله رب العالمين، رب كل شيء ومالكه، وإلهه وخالقه ومدبره. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: هذا قول أهل الجنة، شكراً لله تعالى على إنعامه. قال المفسرون: ابتدأ الله ذكر الخلق بالحمد كما في أول سورة الأنعام ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾ وختم غاية الأمر بالحمد لله بهذه الآية، فنبه على تحميده في بداية كل أمر وخاتمته[1] مما يبين مكانة الحمد ومنزلته، وأنه البداية والخاتمة لكل أمر ذي شأن. فالحمد لله رب العالمين على جميع النعم، ومنها إتمام سورة الزمر، وجميع القرآن العظيم.

تم بحمد الله وفضله إتمام سورة الزمر، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٧/٣٠)